

میںمائیل بولفاکوف

مذکرات طیب شاب

ترجمة وتقديم
د. بخار مرزفی

روایات عالیة " ٦٢ "



الشيخ الفقيه زهير المحمدي

منحائيل بولغاكون

مذكرات طيب شاب

ترجمة وتقديم
د. بخشان مرقضي



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب :

МИХАИЛ БУЛГАКОВ
ЗАПИСКИ ЮНОГО ВРАЧА

ملكرات طبيب شاب / ميخائيل بولغاكوف ؛ ترجمة وعقدديم فسان مرتضى ٠ -
دمشبق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ ٠ - ١٤٩ ص ؛ ٢٥ سم ٠ -
(روايات عالية ؛ ٦٢) ٠

١ - ٨٩١٧٣ د ب و ل م ٢ - العنوان ٣ - بولغاكوف
٤ - مرتضى ٥ - السلسلة
مكتبة الأسد

الابتداع القانوني : ع - ٢٠٥٣ / ١١ / ١٩٩٧

روايات عالمية

« ٦٢ »



مقدمة

ولد الكاتب الروسي ميخائيل افانا سيغيتش بولغاكوف عام ١٨٩١/ في مدينة كييف ، في بيت تري بحياته الروحية والثقافية والفنية ... فقد كان أبوه افاناسي إيفانوفيتش بولغاكوف استاذاً في الأكاديمية العلوم الروحية في كييف ، عالماً باللغات ومؤرخاً مقارناً للأديان . وكانت أمه فارقارا ميخائيلوفنا مدرسة مثقفة ثقافة دينية وفنية وموسيقية عالية .

لم تدم للطفل ميخائيل أيام البلهنية والنعيم ، فقد توفي أبوه عام ١٩٠٧ / وهو لما بزل تلميذاً على مقاعد الدراسة ، فاضطرت أمه الى العمل ، وكابدت الأسرة ضنك العيش ، لكنها استطاعت ، على الرغم من قلة الموارد ، أن ترسل ميخائيل الى الجامعة عام ١٩٠٩ / ليدرس في كلية الطب ويتخرج فيها عام ١٩١٦ / بدرجة امتياز .

التحق الطبيب الشاب فور تخرجه / ١٩١٦ / بالجبهة الجنوبية الغربية متطوعاً في الصليب الأحمر ، ومارس هناك عند خط النار ، مهنته الإنسانية أول مرة ، فعالج المرضى وداوى الجرحى ، وأجرى العمليات الجراحية البسيطة ... وفي نهاية العام نفسه عين طبيباً في إحدى قرى قضاء (سمولينسك) ، فرحل الى هناك ليقضي في الريف النائي عاماً كاملاً يعاني من الوحشة والغربة ، ومن الطبيعة القاسية ويناضل مناضلة لا هوادة فيها الجهل والتخلف والسحر والغيبيات والأمراض المتفشية والسارية ، ويختبر معارفه العلمية وقدراته الطبية ورباطة جأشه ... كان عاماً صعباً وخصباً وصفه الكاتب فيما بعد في قصصه « مذكرات

طبيب شاب » . واثناء إقامته في ريف (سمولينسك) النائي هبت رياح الثورة في موسكو ومدن روسيا الكبرى لكنه لم يستطع المشاركة فيها لانقطاع قريته عن العالم المحيط بها ، بل إنه لم يستطع متابعة اخبارها في الصحف إلا الصحف نفسها لم تكن تصل الى هناك .

عاد بولفاكوف في نهاية عام /١٩١٧/ الى كييف ، وعرج في طريقه على موسكو وساراتوف ، وفي اثناء توقفه في موسكو رأى ما فعلته الثورة والحرب الاهلية فكتب الى اخته ناديا في اليوم الأخير من عام / ١٩١٧ / : « ... منذ زمن قريب ، اثناء سفري الى موسكو ثم الى ساراتوف حصل أن رأيت كيف تهجم الجموع الفقيرة لتحطم الزجاج في القطارات ، ورأيت كيف يضربون الناس ، رأيت البيوت المهتمة والمحترقة ... في موسكو رأيت طواير الجوع مصطفين عند الحوائث ... رأيت الجنود المثيرين للشفقة ... » . لكن الحياة في كييف لم تكن افضل ، فقد عانت عاصمة أوكرانيا ، وعانى بولفاكوف معها ، من الحرب الاهلية الدامية التي نشبت بعد ثورة أكتوبر ، وشاركت فيها الفئات المتصارعة كلها : الجيش الأحمر ، والحرس الأبيض والقوميون (البيلورا) ... الخ كما عانت من الاحتلال الألماني ...

ومما زاد في معاناة الاديب ميخائيل بولفاكوف أنه لم يكن صاحب موقف واضح يدافع عنه ، ولم يكن ميالا لجهة من الجهات المتصارعة . غير أنه وضع في ثورة الصراع وإن لم يكن له يد في اختياره . ذلك أن أسرته كانت ميالة بحكم ثقافتها الدينية والليبرالية وبحكم موقعها البرجوازي الى البيض فانضم اخواه الى صفوف مقاتلي الحرس الأبيض ، أما هو فلم يجد في دموية البيض أو القوميين ما يشجعه على الانتماء لهم ، كما أن البلاشفة لم يكونوا أهله المنشود ولاسيما سلوكهم الذي اختاروه للوصول الى السلطة .

تابع بولفاكوف عمله الطبي بعد أن ثبتت البلاشفة موقعهم في أوكرانيا عام /١٩١٩/ وبدأ في الوقت نفسه بتدوين قصصه (مذكرات طبيب

شاب) ، لكنه لم يستمر طويلاً في عمله الطبي ، إذ وجد أن الأدب هو طريقه الوحيدة في هذه الحياة ، فالتحق إلى موسكو عام /١٩٢١/ ليعمل في صحفها ومسارحها . . . وهناك بدأ بكتابة رأئعته (الحرس الأبيض) التي أنجزها عام /١٩٢٤/ ، وهي تتحدث عن الحرب الأهلية وعن هزيمة البيض في أوكرانيا ، ونشر قصتيه الهجائيتين الساخرتين (كتابات على أطراف الأكمام) و (أنشودة الشيطان) . وكتب قصته المتميزة (قلب كلب) التي تسخر من حياة البيروقراطية ، وتهجو حياة الزيف والنفق ، لكن هذه القصة بقيت مخطوطة في أرشيف المؤلف حتى عام /١٩٨٧/ . وشرع في عام /١٩٢٨/ بكتابة رأئعته الخالدة (المعلم ومرغريتا) التي استمر في كتابتها حتى آخر لحظات حياته عام /١٩٤٠/ .

لم تكن قصص ميخائيل بولفاكوف ورواياته وراء شهرته الواسعة التي حصل عليها في منتصف العشرينات ، بل كانت هذه النهرة وليدة المسرح الذي وهبه بولفاكوف جزءاً كبيراً من حياته واهتماماته الإبداعية . فقد كتب للمسرح عدداً من الأعمال أهمها مسرحيته (أيام آل توربين) التي عرضت على (مسرح موسكو الأكاديمي الفتي) فلاقت رواجاً منقطع النظير ، حتى إن ستالين نفسه كان حريصاً على مشاهدتها غير مرة ، ومسرحيته (شقة زويا) و (الهروب) و (الجزيرة القرمزية) . . .

كان بولفاكوف رجلاً معاكساً للتيار ، فلم يابِه للسلطة ومناصبها وأوسمتها ، وترك لروحه العنان لتعبر عن مأساة البؤساء والمبطلين والفنانين والشرفاء ، ولتفضح بسخرية لاذعة وهجائية شديدة زيف المتسلطين والمنافقين . لذا لم يرق أدب بولفاكوف ومسرحه لذوي الشأن فمُنِع من نشر أعماله وعرض مسرحياته وأوقِفَ عرض (الجزيرة القرمزية) عام /١٩٢٧/ ، فانتَهت بذلك حياته الأدبية العلنية التي لم تستمر إلا سبع سنوات ، وانقطع دخله بعد أن طُرد من عمله فانسدت الأفاق أمامه ، ووصل إلى حد اليأس ، فأحرق مخطوط (المعلم ومرغريتا) عام /١٩٣٠/ ، وحاول غير مرة أن يهاجر خارج البلاد لكنه

لم يوفق الى ذلك ... فكتب رسالة الى الحكومة السوفياتية ، ثم كتب أخرى إلى ستالين للسماح له بالهجرة... وجاء رد ستالين عبر الهاتف، وبقي الكاتب في وطنه يعمل موظفاً في المسرح ويسهر الليالي الطوال يهذب روايته (المعلم ومرغريتا) .

إنّ أهم ما يميز فنّ ميخائيل بولغاكوف هو الارتباط الوثيق بين سيرته الذاتية وإبداعه الأدبي . فقد كانت حياته الشخصية مصدراً لإلهامه وموضوعاً لإبداعه في وقت واحد ؛ حتى إنّ كل عمل من أعماله يصور مرحلة معينة من مراحل حياته ، لتشكل أعماله في مجموعها سيرته الذاتية الواقعية الثاقبة السحرية التي لا تشبه السير إلا في بعض مضائها .

أراد بولغاكوف أن يترك للخلف شهادة فنية عن الكوارث التي عاشتها روسيا والتي كان شاهداً عليها ومشركاً فيها بغير إرادته ، فكانت شهادته نابغة من رؤيته الخاصة ، وهي رؤية لم تكن ملتزمة إلا بالفن الاصيل والأخلاق السامية ؛ رؤية ساخرة متهمكة تنتقد اخلاقيات البيروقراطية الزائفة وتعري انتهازية السياسة ، وتنزع عنهم زينتهم الرسمي واوسمتهم وربطت أعتاقهم ليظهروا من داخلهم عارين أقزاماً أمام العيون ...

لم يكن بولغاكوف ملتزماً بحزب أو سياسة ، لكنه كان فناناً وإنساناً صادقاً ، يضع فنه وإنسانيته فوق كل التزام ، تحدوه أغنية الضمير النقي ، ولا يغريه الجاه أو النشب ...

ولئن غفل الناس عن إبداع بولغاكوف بسبب منع تداول أعماله في الاتحاد السوفياتي بين عامي ١٩٢٧ - ١٩٨٥ ، فانهم الآن عادوا يقدرّون هذا اللبدع ويعطونه حقه بعد أن راجت أعماله رواجاً مذهلاً في بلدان كثيرة من العالم . ومن أهم أعماله الأدبية :

الروايات :

الحرس الأبيض : كتبها المؤلف عام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ طبع ١٣ باباً
منها في مجلة (روسيا) عام ١٩٢٥ . تم طبعت كاملة في باريس عام
١٩٢٧ . ولم تطبع كاملة في روسيا إلا عام ١٩٨٨ .

المعلم ومرغريتا : كتبها المؤلف عام ١٩٢٨ - ١٩٤٠ . ولم تطبع
إلا عام ١٩٧٣ .

مذكرات مرحوم أو رواية مسرحية : طبعت اول مرة في مجلة
(العالم الجديد) ١٩٦٥ . ثم طبعت مستقلة عام ١٩٧٣ .

القصص :

انشودة الشيطان : طبعت عام ١٩٢٤ .

البيضات القتالة : طبعت عام ١٩٢٥ .

قلب كلب : كتبها المؤلف عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ . وطبعت عام
١٩٦٨ في إنكلترا وألمانيا . ولم تطبع في روسيا إلا عام ١٩٨٧ .

الى صديق سري : لم تطبع إلا عام ١٩٨٧ .

القصص القصيرة :

مغامرات الدكتور العجيبة : طبعت عام ١٩٢٢ .

التاج الأحمر : طبعت عام ١٩٢٢ .

القصة الصبئية : طبعت عام ١٩٢٣ .

مذكرات على الأكمام : طبعت عام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ .

المورفين : طبعت عام ١٩٢٧ .

* * *

« مذكرات طبيب شاب » مجموعة قصصية تعكس فنياً تجربة حياتية ومهنية عاشها بولفاكوف في مشفى الصليب الأحمر في الجبهة ، وفي ريف (سمولينسك) النائي ، لكنها ليست انعكاساً آلياً ، أو مذكرات بيوغرافية ... فقد ترك بولفاكوف لحظات التجربة تنتظر سنتين من الزمن لتختمر في ذهنه المتوقد واتخاذ شكلها الإنساني العام ، بحيث تصبح تجربة لكل طبيب مبتدئ في كل مكان ... لقد بدأ بولفاكوف بتدوين قصص هذه المجموعة عام ١٩١٩/ عندما كانت الحرب الأهلية في كييف على أشدها ... وبينما كانت دماء المأساة تسفك في الشوارع والأزقة ... كالت هناك دماء أخرى تقطر على طاولة الطبيب الجراح لتبشر ببرء المريض ، أو بولادة واحدة ، وهي عند بولفاكوف دماء الأمل والنشأة والمستقبل ... أما الرصاص الذي يقتل الأبرياء في الشوارع ، ويوجهه الإنسان نحو أخيه الإنسان فإنه يتحول تحت ريشة الفنان البديع إلى وسيلة للتخلص من الدثاب المفترسة التي نوشك أن تنقض على المزالج ، وتجهز على الطبيب والحوذي (العاصفة الثلجية) .

تحدث قصص هذه المجموعة عن الخطوات الأولى التي يخطوها طبيب شاب في ممارسة مهنة الطب ، إنها خطوات مغامرة وبريئة ، شجاعة ومتردة في وقت واحد . بطلها الرئيس طبيب شاب تخرج حديثاً من مقاعد الدراسة ، ورماء قدره بعيداً في الريف النائي وسط غابات البتولا اللامتناهية والثلوج البيض التي تغمر الكون وتحيل الأشياء إلى لون واحد ... رماه القدر ليضع تفاؤله ومثاليته الأخلاقية ، وشبابه ومرحه ، وقلة خبرته الحرفية في مواجهة صعوبات المجهل والتخلف والسحر والنسوة ... فما كان عليه إلا أن يجابه ويخوض حرباً ضروساً ، يثبت فيها وجوده وأحلامه ، ويدمر خصميه العنيدين : المجهل والمرض .

تحكي قصص المجموعة حكاية المثل الأخلاقية الرفيعة ؛ حكاية المبهجة بائبات الذات ، والفرح بتجاوز قلة الخبرة والتجربة ، والانتصار على المرض ، والحيلولة دون موت إنسان ما ؛ تحكي عن روح الشاب المثالي المتفائل المنتصر دائماً ، الذي يرى كل شيء جميلاً ومثالياً ... كل الوجوه الإنسانية في هذه القصص فاتنة خلابة « تقطر جمالاً مدهشاً » ؛ فالطفلة التي أنقذها طبيبنا الشاب من الاختناق بمرض الخانوق كانت خارقة الجمال حتى إنه نسي عندما رآها علم العمليات الجراحية ؛ نسي وحشته وبوحده ، والجميل الجامعي الذي يثقل كاهله ، نسي « كل شيء تماماً أمام جمال هذه الطفلة الأخاذ ... كان شعرها على طبيعته مجعداً كخواتم كبيرة ، ولونها كلون الحنطة الناضجة ، وعيناها واسعتان زرقاوان .. وخذأها كخدي دمية ... حتى الملائكة لم ترسم بهذا الشكل » . أما تلك التي وقعت في مطبحة الكتان ، والتي اضطرت طبيبينا الشاب إلى إجراء عملية البتر لرجلها ، فقد « ذوى خلف وجهها الأبيض الذي يشبه الثلج الساكن جمالاً حقيقي نادراً لا يرى ثلثه مثله دائماً ، بل قلما يرى مثله » .

وبجاوز الجمال في عالم بوالغاكوف القصصي الوجوه الإنسانية ليشمل الأشياء من حوله فيصبح كل شيء جميلاً : المصباح المتلألئ عند البوابة ، وشقة الطبيب بما فيها من مكتبة وآرائك وموقد هولندي ... حتى الطبيعة القاسية المتوحشة ، التي كثيراً ما يعابها الكاتب لقسوتها ، تتحول في أحيلن كثيرة إلى ذات إنسانية رائعة تشعر بالقلق والأسى وتشاووك الطبيب متساعره : « كان الهواء يأتي للقائنا عبداً ... ونحن نسمع هدير الماء ، هدير الماء المرح الذي يندفع عبر دهامات الجسر الخشبية ... استقبلنا الوليد الذكر ، استقبلنا روحاً حية وأنقذنا الأم ... » .

كل ما يحيط بالطبيب الفتى جميل وإيجابي ، فالمرضى لهم عيون ساحرة وواسعة ... والعالم الطبي مثالي تماماً . فالمساعد والمرضات

- وحتى الحارس إيفوريتش - متحفزون دائما ، منكرون للذات ، مستعدون للمساعدة والقيام بالواجب . أما الأطباء الذين يأتي على ذكرهم فهم متفوقون موهوبون متميزون (ليوبونتي وطبيب مشفى المدينة دو اللحية الصفراء) ... كل شيء يؤدي الى النهاية السعيدة ، النهاية التي ينتظرها القارئ بسوق وتحفز . لكن بولفاكوف لا يوصلنا الى تلك النهاية قبل أن يجول معنا في عوالمه الساحرة وينقلنا من غرفة الاستقبال الى العنبر ثم الى غرفة العمليات فغرفة الطبيب فالمكتبة ... إنه عالم واقعي . يسي بصدق المؤلف الفني الناتج عن صدق التجربة الحقيقية ؛ وحتى في تلك اللحظات التي لا يتفق فيها سياق القصص مع سيرة الكاتب الذاتية فإنه يوهنا بصدقه الفني الذي يصل إليه عبر تماسك القصة ووحدتها ، وجمال الوصف ودقته ، وسلاسة الأسلوب وبساطته ، حتى إنه يقودنا عبر الحبك المحكم الى المتابعة دون ملل حتى نصل الى الغاية والهدف .



كان من عادة ميخائيل بولفاكوف أن ينسخ مؤلفاته من دفتر الى آخر جديد ، ويقوم في أثناء ذلك بعمليات الحذف والإضافة والتصحيح والتنقيح ... وقد فعل ذلك مع هذه المجموعة مرة واحدة عام ١٩٢١/ - وذلك خلافا لعادته في الإكثار من المراجعة والتدقيق ، ولم يعد إليها إلا عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ عندما أخذ ينشرها منجمة في مجلتي (البانوراما الحمراء) و (الباحث الطبي) . وكانت عملية النشر هذه هي الوحيدة لفصص هذه المجموعة إبان حياة المؤلف ، إذ لم تطبع ثانية إلا في منتصف الثمانينات عندما سمحت السلطات السوفياتية بنشر أعمال الأدباء الذين لم يكونوا في جانب السلطة .

ولأن المؤلف نشر الفصص منجمة ، ولم ينشرها كلاً متكاملاً ، بل لم يراجعها دفعة واحدة على ما يبدو ، فقد وقع في بعض الهنات التي

ما كان لها أن تكون لو تعامل مع هذه المجموعة بالحرص المعهود عنه في أعماله الأخرى .

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أخطائه في ذكر اسم المدينة ، واسم المستشفى ، وعمر الطبيب ، وأسماء الممرضات ... ويمكن الإشارة في هذا المجال أيضاً إلى مشكاة ترتيب القصص ، إذ يحار الباحث أيها يضع أولاً (الحنجرة الحديدية) أم (المنشقة ذات الديك) ، فكل واحدة تصلح أن تكون قصة افتتاحية ، كما يحار في ترتيب المعصص الأخرى !!

إن مثل هذه الهنات الطفيفة لا تؤثر تأثيراً مباشراً في جوهر النصوص ، لكنها تؤكد أن التعديلات التي أجراها المؤلف بين لحظتي الكتابة الأولى والنشر لم تكن جوهريّة ، وشاملة بقدر ما كانت جزئية وسطحية .

نشرت قصص المجموعة بين عامي / ١٩٢٥ - ١٩٢٦ / في مجلة الباحث الطبى الموسكوفية على النحو التالي :

| | |
|------------|-------------------|
| ١٩٢٥/١٢/ ٢ | التمديد بالتحويل |
| ١٩٢٦/ ١/٢٥ | العاصفة الثلجية |
| ١٩٢٦/ ٧/٢٧ | العتمة المصرية |
| ١٩٢٦/ ٨/٢٩ | الطقح النجمي |
| ١٩٢٦/ ٩/١٨ | المنشفة ذات الديك |
| ١٩٢٦/١٠/١٢ | العين المفقودة |

أما قصة الحنجرة الحديدية فقد نشرت في ١٥/٨/١٩٢٥ في مجلة (البانوراما الحمراء) اللينينغرافية .

وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على طبعة الأعمال المختارة في جزيين الصادرة في منيسك عام /١٩٩١/ .

د. غسان مرتضى

الحجرة الحديدية

...وهكذا غدوت وحيداً ، يحيط بي ظلام تشرين الثاني ، وتلججه المتقلب الذي غمر البيت ، وريحه التي تصغر في المداخل . لقد عشت أعوامي الأربع والعشرين في مدينة كبيرة جداً ، وكنت أظن أن العواصف الثلجية تعوي في الألواح فقط ، لكن ، ظهر لي أنها تعوي على أرض الواقع أيضاً . المساءات هنا طويلة طولاً غير عادي ، ومصباح الطاولة الأزرق يعكس ضوءه في النافذة السوداء ، وأنا أحلم ، ناظراً في البقعة المضاءة على طرف يدي اليسرى : حلمت بمركز القضاء الذي يبعد عشرين فرسخاً من هنا ، تمنيت أن أهرب من مركزي هذا إلى هناك حيث يوجد كهرباء ، وأربعة أطباء يمكن للمرء أن يطلب النصيحة منهم ، وعلى كل حال ، فالأمر هناك ليس مخيفاً كما هو هنا ، لكن ، ليس ثمة فرصة للهرب ، بل يخيل إلي أحياناً أن الهرب ضرب من التخاذل ، لقد درست في كلية الطب من أجل هذا بالذات ..

... ماذا لو اتوا بالمرأة تعاني من حالة ولادة عسيرة ؟ أو بمرضى يعاني من فتق مخنق ؟ ماذا سأفعل ؟ أنصحوني من فضلكم ، فقد تخرجت منذ ثمانية وأربعين يوماً في كلية الطب «تقدير ممتاز» ، لكن كلمة ممتاز تبقى على الورق ولن تساعد في عملية الفتق المخنق .

شاهدت مرة واحدة فقط كيف أجرى البروفيسور عملية جراحية للفتق المخنق ، لقد أجراها في حين جلست أنا في المدرج .. فحسب .. كان العرق البارد يبلل ظهري عندما كنت أفكر بالفتق المخنق . كنت أجلس كل مساء في وضعية واحدة لا أغيرها ، أعب الشاي وقد وضعت

تحت يدي كل كتبي العلمية حول عمليات التوليد ، وفوقها دليل « دوديرليان » الطبي الصغير ، وتناثرت عن يميني عشرات المجلدات المختلفة حول العمليات الجراحية مع الرسومات التوضيحية . كنت أتأوه ، ادخن وأشرب الشاي البارد .. وهكذا غفوت على هذه الوضعية ، اذكر تلك الليلة جيداً - ٢٩ تشرين الثاني - إذ استيقظت منذ خمس دقائق على صوت قرع شديد على الباب ، وها أنا ذا أحاول ارتداء بنطالي دون أن أحوّل هيني المتضرمتين من الكتب المقدسة للعمليات الجراحية ، سمعت صرير المزلاج في باب الفناء . أذناي أصبحتا مرهفتين على نحو مدهش . حدث ، على ما يبدو ، شيء أشد رهبة من الفتق ، وأشد تعقيداً من حالة الولادة العسيرة . لقد جاؤوا بطفلة مريضة إلى مشفى نيكولسك في الساعة الحادية عشرة ليلاً .

قالت لي المريضة بصوت خافت :

— طفلة مريضة تموت ... من فضلك يا دكتور إلى المشفى ...

أذكر أنني قطعت الفناء ومشيت مهتدياً بضوء مصباح الكاز ، وعند مدخل المشفى نظرت كالسحور إلى تلالو المصباح .

كانت غرفة الاستقبال مضاءة ، والعناصر اللذين يساعدونني ينتظرون قدومي مرتدين ملابسهم البيضاء . هؤلاء هم : مساعدي ديبان لوكيتش ، إنه جد كفاء على الرغم من صغر سنه ، وقابلتان خبيرتان : ملريا نيكولايفنا وبراسكوفيا ميخائيلوفنا أما أنا فقد كنت شاباً في ربيعي الرابع والعشرين ، تخرجت في الجامعة منذ شهرين وعينت رئيساً لمشفى نيكولسك .

فتح مساعدي الباب بطريقة احتفالية فظهرت لي أم لكانها دخلت طرناً أو متزحقة بجزمته الشتوية حتى أن الثلج لم يكن قد علق على خملرها ، كان وجهها مجعداً وكانت تبكي بصمت ، وهي تحمل بين يديها

اللفة «زقو وتصفر بشكل رتيب ، وعندما خلعت الأم معطفها وخمارها ، حلت اللفة فشاهدت طفلة في عالمها الثالث ، ونسيت في تلك اللحظة علم العمليات الجراحية كلياً ، ونسيت وحشتي والجميل الجامعي الذي يثقل كاهلي ، نسيت كل شيء تماماً أمام جمال هذه الطفلة الأخاذ .

أي شيء يمكنني مقارنتها ؟ لا يوجد أطفال بهذا الجمال إلا على علب الشوكولا فقط ، كان شعرها على طبيعته مجعداً كخواتم كبيرة ، ولونها كلون الحنطة الناضجة ، وعينها واسعتان زرقاوان ، وخداها كخدي دمية ، حتى اللاتكة لم ترسم بهذا الشكل . لكن ، ثمة كدر غريب عشت في قاع عينيها ، وفهمت أن هذا الشيء الغريب هو الخوف – لم يكن بإمكانها أن تتنفس ، « ستموت بعد ساعة » ، فهمت بشكل لا ريب فيه ، فالقبض قلبي انقباضاً موجعاً ...

لاحظت ان المجاري الهوائية تغور تحت حنجرتها ، وان العروق تنتفخ عند كل شهيق ، وان اللون الوجه الوردي النضر قد تحول إلى ليكي باهت لقد فهمت معنى تغير اللون هذا وفهمت فوراً أين نكمن المشكلة . وقد كان تشخيصي الأول صحيحاً تماماً ، والأهم من ذلك كان متزامناً مع تشخيص القلبتين الملتهبتين «الخبرتين : » الطفلة مريضة بالخناق وقد تراكت الأغشية المريضة في الحنجرة وعماً قريب ستخلق تملأ ... » .

سألت مخترباً ضمت أفراد مجموعتي المتحضر :

– كم يوماً مضى على مرض الطفلة ؟

– «اليوم الخامس – قالت الأم وهي تنظر إلي بعينيها الواجتمين .

إنه الخناق – قلت لمساعدتي دون اكتراث ، ثم قلت للأم :

– وأنت بأي شيء كنت تفكرين ؟ ماذا كنت تعتقدين ؟

مذكرات طبيب مـ٢

في تلك اللحظة دوت من خلفي صوت باك :

— اليوم الخميس يا ابتاه ، الخامس ...

والفتت فرايت عجوزاً هادئة مدورة الوجه ، تضع خماراً . « كم كان عظيماً لو لم تخلق هذه المعجزات بتاتاً » ، وفكرت في الهاجس المحزن الذي ينذر بالخطر ، وقلت :

— انت يا عجوز ، اسكتي إنك تعيقيني ، واعدت السؤال على
الأم :

— بماذا كنت تفكرين منذ خمسة أيام ؟ ... ؟

دفعَت الأم بالطفلة الى العجوز بحركة تلقائية ، وركعت على ركبتيها امامي ، ثم قالت وهي تضرب جبينها بالأرض :

— أعطها شرباً ... سأخنق نفسي اذا ماتت .

— انهضي حالا وإلا فإنني لن أتحذ معك بعد الآن .

نهضت الأم بسرعة تحف تنورتها الواسعة بالأرض ، وتناولت الطفلة من العجوز وراحت تهددها . في حين أخذت العجوز تصلي متوجهة نحو أيقونة في الزاوية وتابعت الطفلة تنفسها الذي يشبه الفحيح .

قال مساعدي :

— كلهم يفعلون الشيء ذاته نا ... س ، ومال شارباه — هو
يقولها — ميلا واضحاً .

— ماذا إذا ؟ هل ستموت ؟ سألت الأم وهي تنظر إليّ بغبط أسود .
فأجبت بصوت خفيض وجازم :

— نعم ستموت .

عند ذلك تناوالت المعجوز طرف نوبها وأخذت تسمح عينيها ،
بينما صاحت الأم بصوت أجش :

— أعطها ، ساعدها ، أعطها شراباً .

لقد مررت جيداً ما ينتظرني ، فكنت حازماً :

— أي شراب أعطيتها ؟ التصحوني ، الطفلة تختنق ، حنجرتها
مملوءة ، وأنت منذ خمسة أيام تعديينها على بعد خمسة عشر فرسخاً
من هنا ، والآن ماذا تريدني أن أفعل ؟

قالت المعجوز ما جانب كتفي الأيسر بصوت مصطنع :

— أنت تعرف أكثر يا أبتاه ..

وعلى الفور شعرت حيالها بمقت شديد .

— أخوسي ، قلت لها ، والاتجهت نحو مساعدي وأمرته أن يأخذ
الطفلة .

أعطت الأم الطفلة للقابلة ، فأخذت تخفق بين يديها تريد على ما
يبدو أن تصرخ ، لكن صوتها لم يخرج . وازدادت الأم الدفاع عن ابنتها
فأبعدناها ... واستطعت أن انظر في ضوء المصباح الأساطع إلى بلعوم
الطفلة . حتى تلك اللحظة لم أرَ في حياتي حالة خناق حادة أبداً ، إلا
تلك الحالات البسيطة التي كنت قد نسيتهما بسرعة . كان ثمة شيء ما
منتفخ أبيض ممزق في بلعومها . تنفست الطفلة فجأة بعمق ، وبصقت
في وجهي ، لكنني — لسبب ما — لم أخفق على عيني المشغولتين بأفكاري

قلت وأنا مدهوش من قدرتي الذاتية على تمالك الأعصاب :

— الأمر كذلك ، لقد تأخرتم ، الطفلة ستموت ، ولا يمكن مساعدتها إلا بشيء واحد هو العمل الجراحي .

وتوجست خيفة من قلبي هذا . لماذا فلتة ؟ لكنني لم أستطع إلا أن أقول . وخطرت في ذهني فكرة : « ماذا لو وافقوا ؟ »

سألت الأم :

— كيف هذا ؟

فشرحت لها :

— يجب علينا أن نفتح الحنجرة من أسفلها ، ونضع أنبوباً فضياً ، كي نتمكن الطفلة من التنفس عندئذ يمكن أن ننقل حياتها .

نظرت الأم نحوي نظرتها إلى مجنون ، وحجبت عني طفلتها بيديها .
أما المعجوز فشرمت تقول :

— ماذا بك ، لا تعطيه إياها ، سوف يلدبجها ، ماذا بك ؟ إنها حنجرة ...

قلت لها بكره شديد :

— أخرجي أيتها المعجوز من هنا . ثم امرتي مساعدي قائلاً :

— رشوا الكافور !

لم تعطينا الأم الطفلة عندما رأت المحقنة ، لكننا سرحنا لها أن هذا ليس مخيفاً . فسألت :

— أيمكن لهذا أن يساعدها ؟

— لا ، لا يساعدنا إطلاقاً .

عندها عادت الأم للنحيب .

— كفي عن هذا ، قلت لها ، ثم نزعتم ساعة يدي وتابعت :

— أعطيك خمس دقائق للتفكير ، وإذا لم توافقني خلال هذه الدقائق الخمس فسأتخطى بعد ذلك عن هذا الأمر بنفسني .

فقالتم الأم بحدة :

— غير موافقة .

وأضافتم العجوز :

— لسنا موافقين .

— إذا كما تريدان . قلت بصوت خفيض ، وفكرتم « وهكذا ينتهي كل شيء » ، وهذا أسهل علي ، لقد قلت لهم ، عرضتم عليهم أمام عيون القابلات المدهوشة ، لكنهم رفضوا ، فأنقذوني . وما كدت أنتهي من تفكيري هذا حتى صاح أحدهم من ورائي بصوت غريب .

— ماذا بكما ، هل جننتما ؟ ما معنى رفضكمه ههنا ؟ أتقتلان الطفلة ؟ وافقا ... كيف لا تشفقان عليها ؟

— لا ... صرخت الأم من جديد .

فكرتم في نفسي « ماذا أنا فاعل ؟ قد اذبح الطفلة » . لكنني قلت قولاً مخالفاً :

— هيا بسرعة ، بسرعة ، وافقا وافقا . لقد بدأت أظفارها تميل
الى الزرمة .

— لا ، لا ...

— إذا خدوهما الى العذر لتجلسا هناك .

فأخلوهما عبر المر شبه المعتم . . وسمعت بكاء المرأة وصغير
الصغيره . وبعد ذلك عاد مساعدي لينقل إليّ موافقتهما .

— وافقتا ..

تحجر كل شيء في داخلي ، لكنني قلت بشكل واضح :

— صفوا الموضع والمقصات والكلايات بسرعة ...

بعد دقيقة قطعت الغناء مسرعا ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تمر
مسرعة تضرب الوجه كالتيطان . وركضت الى غرفتي حاسبا الدقائق ،
فتناولت كتابا وقلبت صفحاته فوجدت رسما توضيحيا يصور طريقة
شق الرغامى . كان كل شيء واضحا في الرسم وكانت الحنجرة مفتوحة
بسهولة والسكين مفروزة في الرغامى .

عكفت أقرأ النص دون أن أفهم شيئا ، إذ كانت الكلمات تقفز من
أمكنتها أمام عيني بشكل غريب . أنا ، لم أرَ في حياتي كيف يجرون
جراحة الرغامى ، « آه لقد فات الأوان » قلت في نفسي وأنا أنظر باكتئاب
على ضوء المصباح الأزرق في الصورة الواضحة أمامي . وشعرت أن
عملا صعبا ومخيفا قد هبط على رأسي . ثم عدت أدراجي الى المنفى
دون أن لاحظ العاصفة في الغناء ، كان الظلام دامسا في غرفة الاستقبال .
جاءت العجوز بتنورتها الملفوفة ، فالتصقت بي وأخذت تشكو ناشجة :

— 'بناته .. كيف يكون الامر كذلك؟! كيف ستفتحون حنجرة
الطفلة؟ اويغفل هذا؟ .. لقد وافقت، إنها امرأة غبية، أما أنا فلست
موافقة، اقبل العلاج بالشراب لكنني لن اسمح بتسحق حنجرتها .

— لتخرج هذه العجوز من هنا . صرخت، ثم أضفت وأنا في سورة
الغضب : أنت الغبية ، أنت ذاك ، أما هي فذكية ، إضافة إلى ذلك
فإن أحداً لم يسألك . أخرجوها .

طوقت القابلة العجوز ثم دفعتها خارج الغرفة .

قال مساعدي فجأة :

— كل شيء جاهز .

دخلنا الى غرفة العمليات الصغيرة ، وما كدت أعبّر العتبة حتى
رايت عبر الستائر الادوات الالامعة ، والمصباح المبر ، وغطاء الشمع .. .

وخرجت المرأة الاخيرة الى الام التي استطعنا انتزاع الطفلة من بين
يديها بصعوبة ، فسمعت صوتاً مبوحاً يقول :

« الزوج غير موجود ، إنه في المدينة ، سيأتي وسيطعم بما فعلت ،
سيقتلني » .

— سيقتل ، كررت العجوز وهي تنظر إلي نظرة مخيفة .

قلت امرأة :

— لا تدعوها تدخلان غرفة العمليات .

اصبحنا وحدنا في غرفة العمليات ، الطاقم وأنا والطفلة لبدكا .
كثفت الطفلة جالسة على الطاولة عذرية . تبكي بجلاء . صوت .. مددوها على
الطاولة . وغسلوا راسيتها ، ثم مسحوها باليود .

تناولت الموضع ، وفي تلك اللحظة فكرت : « ماذا أنا فاعل » ، كان كل شيء هادئا في غرفة العمليات . جرحت بالموضع الحنجرة المريضة المنتفخة جرحا عموديا . لم تنزف نقطة دم واحدة ، ثم مررت بالموضع على الأنسجة الرخوة البيض التي كانت تفصل بين شقي الجلد فلم ينزف الدم أيضاً في هذه المرة ، وبينما شرعت أقص الشاش بمقص منلوم اخذت اذكر بعض رسومات الاطالس الطبية تذكرأ بطيئا . عند ذلك اندفع الدم القاتلي من أسفل الجرح ، وغمر ، بلمح البصر الجرح كله وسال على الرقبة . فاخذ مساعدي يمسح الدم بقطع الشاش ، لكن النزف لم يتوقف ، حاولت أن اربط بين ما كنت رايتة في الجامعة وبين الحالة التي امامي ...

اخذت اضغط طرف الجرح بالملقط لكن دون نتيجة . أصابني البرد ، وايتل جيبني . اسفنت بحسرة لانني انتسبت الى كلية الطب ولانني اتيت بنفسي الى هذه المجاهل . وبياس شديد غرزت الملقط بشكل اعتباطي في مكان ما قرب الجرح ، وضغطت ، عندها توقف النزيف ، فجففنا الجرح بقطع الشاش ، فظهر لي نظيفا لكنه غير مفهوم البتة . لم يكن ثمة وجود للرغامي في أي مكان ، أما الجرح الذي أحدثته فلم يكن له شبه في أي رسم توضيحي . مرت دقيقتان او ثلاث ولأنا اقوم بشكل آلي لا واع بغرز الموضع مرة والملقط مرة تالية باحثا عن الرغامي وفي نهاية الدقيقة الثانية ينست من العثور عليها .

« إنها النهاية ... فكرت - لماذا فعلت هذا ؟ كنت استطيع الا اعرض عليهم العملية ، وبذلك تموت ليديكا بهدوء في العنبر ، أما الآن فإنها ستموت بحنجرة مشقوقة ولن استطيع البرهنة بتاتا أنها كانت ستموت على كل حال وانني لم أضرها ... » .

مسحت القابلة جيبني بصمت . « اضع الموضع جانبا ، اقول لا اعرف ما افعل بعد هذا ؟ » هكذا فكرت ، وقرأت لي عينا الام ،

فأخذت الموضع من جديد وفرزته دون وعي في رقبة ليدكا بحدة وعمق فتباعدت النسيج البيض وظهرت امامي الرغامي ظهوراً مفاجئاً .

— الكلابات !! طلبت بصوت مبجوح .

ناولني مساعدي الكلابات ، ففرزت طرف الكلاب الاول في جهة والطرف الثاني في الجهة الاخرى وناولت واحداً لمساعدتي وبعدها رأيت شيئاً واحداً فقط حلقات الرغامي المصلبة ، ففرزت الموضع الحاد فيها ، وصعقني ما رأيت إذ اندفعت الرغامي خارج الشق المحدث ، عندها أصيب مساعدي ، كما نهيأ لي ، بالجنون ، فقد أخذ فجأة يقطع الكلاب من مكانه . تلاهت القابلتان من ورائي فرفعت عيني ، وفهمت ما الخطب: لقد بدا أن مساعدي قد أغشى عليه من جراء النجاس الهوائية وانه يترك الكلاب الذي في يده فكاد يقطع الرغامي من مكانها . « كل شيء ضدي حتى القدر — وفكرت — يبدو الآن دون شك أننا قد ذهبنا ليدكا ، ثم استرسلت في التفكير وقلت لنفسي جازماً : حالما أعود الى البيت سأنحر ... » ، عندها رمت القابلية الاقدم ذات الخبرة الجيدة نفسها على مساعدي وتناولت منه الكلاب ، ثم قالت لي مطبقة بشدة على اسنانها :

— تابع يا دكتور .

سقط مساعدي على الأرض فارتطم محدثاً صوتاً ، لكننا لم نكتثر له . فرزت الموضع في الرغامي ثم زرعت فيها الأنبوبة الفضية ، فانزلت بحلق ، لكن ليدكا بقيت بلا حراك ولم يدخل الهواء الى مجراها التنفسي كما ينبغي أن يكون الأمر . تنفست الصعداء وتوقفت ، لم يكن علي أن افعل شيئاً بعد هذا ، كنت أود أن أعتذر من شخص ما ، أو اعترف بطيشي عندما قررت أن أنتسب إلى كلية الطب .

كان الصمت مطبقاً ، ورايت كيف كانت ليدكا تزرق ، فرغبت أن
الرك كل شيء وأبكي . وفجأة ارتعش ليدكا ارتعاشة غريبة وطرحت
كالنافورة عبر الأنبوبة الأعشية المعتلة والدم المتخثر . فدخل الهواء إلى
مجاريها التنفسية مصدراً صغيراً حاداً ، بعد ذلك أخذت الطفلة تنفس
وتثن بصوت مرتفع . في تلك اللحظة نهض مسامدي شاحباً متعرقاً
ونظر بغباء وخوف نحو ربة الطفلة وشرع بسامدي في إخطاة الجرح .

ورابت عبر الحلم ، وعبر غشاوة العرق التي غطت عيني وجهي
القابلتين الفرحتين . فقالت لي إحداهما :

— لقد انجزت العملية إنجازاً رائعاً يا دكتور .

ظننت أنها تسخر مني فنظرت إليها بكأبة مقطبة حاجبي ، ثم
فنجوا الباب فدخل النسيم العليل ، وظهرت الأم في الباب على الفور ،
كانت عيناها كعيني حيوان مفترس ، وسالتني :

— ماذا ؟

عندما سمعت رنين صوتها سال عرقي في ظهري ، وعندها فهمت
ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن ليدكا ماتت على طاولة العمليات . لكنني
أجبتها بصوت شديد الهدوء : — كوني مطمئنة ، إنها حية ، وستكون
حية كما أتمنى ، لكنها لن تستطيع نطق أية كلمة قبل أن ننزع الأنبوبة
لدا لا تخافي .

وهنا شبت المعجوز من تحت الأرض راسمة علامة الصليب نحو
فضة الباب ، ثم نحوي ، فنحو السقف . لكنني لم أغضب منها في هذه
اللحظة . التفت وأمرت أن يحقنوا ليدكا بالنافور . وأن يتناولوا على
رعايتها ، ثم ذهبت إلى غرفتي عيز الغناء . كان المصباح الأزرق مضاء
في غرفة مكثي . حيث يوجد « دوديرليان » وحيث تناثرت الكتب

هذا وهناك . اقتربت من الأريكة واضطجعت فوقها بملابسي ثم توقفت عن رؤية أي شيء مهما كان شأنه ، ونمت نوماً عميقاً حتى أنه لم أر أحلاماً .

مر شهر ثم آخر ، عاينت أمراضاً كثيرة كان بعضها مخيفاً أكثر من حنجرة اليدكا ، لقد نسيت تلك الحنجرة .

كان الثلج يغمر الكون ، وكان عدد المرضى المعالجين يرتفع يوماً بعد يوم . وذات مرة في العام الجديد دخلت امرأة إلى غرفة العيادة ، تسحب بيدها طفلة ملتحفة تشبه الصندوق ، تهلت عينا المرأة ، وعندما أنعمت النظر عرفتها .

— آ . . . ليدكا ، ماها ؟

— كل شيء على ما يرام .

لقد فكوا الضمادات عن رقبتها ، كانت خجلة وخائفة ، لكنني تمكنت على الرغم من ذلك من رفع ذقنها ومن النظر إلى رقبتها ، كان ثمة ندبة سمراء عمودية على الجيد الوردي وندبتان عرضيتان رفيعتان من اثر الخيلطة ، قلت :

— كل شيء على مايرام تستطيعين الا تأتي بعد الآن .

— فردت الام :

— اشكرك يادكتور شكراً جزيلاً . ثم خاطبت ابنتها :

— قولي شكراً للعم .

لكن ليدكا لم تشأ أن تقول لي شيئاً . وولم أرها بعد ذلك بتاتاً واخذت انسائها . أما معالجتني المرضي فكانت تزدد يوماً بعد آخر ،

وجاء يوم عالجت فيه مئة وعشرة مرضى ، فقد بدأنا العمل في التاسعة صباحاً وانتهينا في الثامنة مساء ، وعند انتهاء العمال ، نزعنا ودائنا الأبيض وأنا أتمايل ، ففالت لي مساعدي القابلة الاقدم :

— يجب ان تشكر الخناق على هذا النجاح . اتعرف مايقول الناس في القرى ؟ يقولون إنك مجنون اليدكا ، لقد وضعت مكلن حنجرتها حنجرة مولاذية ، واخطتها . إنهم يسافرون إلى تلك القرية خصوصاً كي يتساهدوها . هذا هو المجد يا دكتور . أهنتك . واستفسرت :

— او تعيش بهذه الحنجرة الفولاذية ؟

— نعم إنها تعيش . أما انت يادكتور فممتاز . تفعل كل شيء بدم بارد وبشكل رائع .

— إيه . . . نعم ، انا ، اتعرفين ؟ انا لا اضطرب أبداً . قلت لها هذا دون ان اعرف لماذا قلته . لكأ شعرت أنني من شدة الإرهاق لا اأستطيع حتى ان أخجل ، حاولت نظري إلى الجانب الآخر فقط ثم رددتها وذهبت إلى غرفتي . كانت ندف الثلج تتساقط لتفمر كل شيء . . . وكان المصباح مضاء . وكان ببتي منفرداً ، هادئاً وجميلاً ، والنساء سيري كنت أرغب في شيء واحد فقط : ان انام .



التعميد بالتحويل

مرت الأيام وأخذت المعتاد الحياة شيئاً فشيئاً في منفى (نيكولسك) وبقي أهل القرى - على عاداتهم - منهمكين في غزل الكتان ، وظلت الجوارى عسيرة العبور ، ولم يربّ عدد المرضى المراجعين عن خمسة يوماً ، لذلك فقد كرسيت الأماشي التي لم أكن أعمل فيها لترتيب المكتبة ومطالعة كتب الجراحة واحتساء الشاي عند السماور الذي يثر أزيزاً هادئاً ، وأنا أكابد الوحدة الطويلة .

كان المطر ينهمر ليلاً ونهاراً أنهملاً متواصلاً ، وتنقر القطرات السقف نغماً لا يهدأ ، ويتدفق اللاء غزيراً تحت النافذة وأشاح من الزراب إلى البراميل . وكان الفناء موحلاً تحلق به من ديتاجي الظلام السادرة في حلقتها وقد زادها الضباب عتمة . ولنتشر من خلالهما حزم النور الشاحبة المنبعثة من نوافذ بيت مساعدي ومن اللصباح الزيتي المضاء عند الباب الخارجى .

في إحدى هاتيك الليالي كنت عاكفا على مطالعة الأطلس علم التنجيم أكابد الصمت المحقق بي ، الصمت الذي لم يكن يقطعه إلا هراش القنبران خلف النملية في عرفة الطعام .

قرايت حتى بلبات أجفاني المتشافة بالإغماض ، وأهملت الأطلس وأقصيته عنى لم انطلقت إلى غرفة النوم تحت ضجة الأمطار وقرعها ، وأنا أتمطى في التظلم أحلام هائلة ، فنزعت عنى ثيابي واضطجعت ولم أكد الأمس الحشية حتى لاح لعينى شبح آنا براخوروكا وهي صبية لم تناهز السابعة عشر من عمرها من قرية تورو بوفو ، جلبت لقلبي أحد

أسنانها ، فدلف مساعدي ديميلان لوكيتش وهو يحمل بكلتا يديه الملاقط المتالئة. وتذكرت كيف كان يصطنع قبرة متفاححة في أسلوبه إذ يستبدل كلمة بأخرى مع أنهما تشيران إلى المعنى نفسه ، فضحكت ضحكة خبيثة ثم غفوت . لكنني استيقظت من نومي بعد نحو نصف ساعة فجأة كأن أحدهم قد جرنني من رجلي ، فاستويت في مجطسي وشرعت أجيل طرفي في الظلام واصيخ السمع وجلا .

كان ثمة قرع لجوج وقوي على البوابة الخارجية ، وحدثت أنه فرع منذر بالشؤم ... خفت القرع ، وقلقل المزلاج وتناهى إلى سمعي صوت الطباخة وهي تجيب على صوت غير مفهوم ، ثم صعد أحدهم على الدرج الذي أخذ يصرّ ، واجتاز حجرة المكتب ثم قرع باب غرفة النوم

— من هناك ؟

— أنا الممرضة اكسينيا ، قالت ذلك بهمس مفعم بالجلالة ...

— ماذا الأمر ؟

— لقد أرسلت أنا نيكولايفنا تطلب منك أن تذهب إلى المشفى على جناح السرعة .

— ماذا حدث ؟ نطقت بهذا السؤال بينما أخذ قلبي يخفق خفقاً سريعاً وواضحاً .

لقد أحضروا امرأة من قرية دولتسييف ، ولادتها عسيرة .

« هكذا إذا ، لقد بدأت ... » لقد خطر هذا في ذهني ، وإعيايني ارتداء الحذاء كيفما جاء. واتفق. آه يا للشيطان ! أعواد الثقاب لا تشتعل ، لكن ، وماذا ؟

كان هذا الامر سيحدث عاجلا او آجلا ، فالطب لا يقتصر على
التهاب الحنجرة وقسطرة المعدة .

نهضت من فراشي وقلت :

— حسناً ... اذهبي واخبريها انني سأحضر في الحال .

خفقت خطوات أكسينبا وراء الباب ثم قلقل المزلاج من جديد .

لقد قفز النوم من عيني كالبرق ، فأسرمت إلى إضاءة المصباح ،
وأصابعي ترتجف . وأخذت أرتدي ملابسني . السلعة الحادية عشرة
والنصف ... ما قصة هذه المرأة وما امر ولادتها العسيرة ؟ « هم » ..
وضعية غير صحيحة ... حوض ضيق ... أو من الممكن شيء آخر
أكثر سوءاً . ما أسوأه من امر اذ لا بد من استخدام الملاقط ، أنرسلها
إلى المدينة فوراً ؟ هذا مستحيل ! سيتهامسون فيما بينهم : « يا له من
دكتور » « لا كلام عليه » ... ! لا . حتى أنني لا أملك حقاً في ذلك .
يجب أن أفعل كل شيء بنفسني ... لكن ماذا أفعل ؟ الشيطان وحده
يعرف . ستكون مصيبتني كبيرة اذا ارتبكت أمام القابلات . على أية
حال لا بد أن أعاينها قبل كل شيء ولا داعي للقلق مسبقاً ... لبست ،
ووضعت المعطف على كتفي ، متمنياً من كل قلبي أن تجري الامور كما
يجب ، وهرعت أركض تحت المطر ، فوق ألواح الخشب الموطوءة .
ولاحت عربة في العتمة كانت الفرس تضرب بحافريها ألواح الخشب
المنخورة .

— أنت من أتى بالمرأة الحامل ؟ سألت — دون أن أدري لماذا ..

الشبح الذي كان يتأرجح خلف الفرس .

أجابني صوت عجوز ممتعضاً :

— أنا ... ومن يمكن أن يكون ! أنا يا ابتاه ...

كانت المشفى ، على الرغم من الساعة المتأخرة في الليل ، تضيء حيوية ... ولكن المصباح مضاء يتلألأ في قاعة الاستقبال . وانسلت في الممر المفضي إلى غرفة التوليد أكسينيا من جانبي تحمل طستاً . وتناهى إلى سمعي من خلف الباب اثنين ضعيف ثم ما لبث أن تلاشى . فتحت ودخلت غرفة التوليد ، انها غرفة صغيرة معطية طلاء جيداً ومضاءة بضوء ساطعة بفضل المصباح المعلق في السقف . وتمددت على السرير بجانب طاولة العمليات امرأة فتية مدثرة ببطانية حتى ذقنها ، وكان وجهها مصعراً ، جمده المرض ، والتصقت خصل شعرها الندية بجبينها.

كانت آنا نيكولايفنا تحضر محلولاً في إوهاء حاملة ميزان الحرارة بيدها ، أما القابلة الأخرى بيلاجيا إيفانوفنا فقد أخرجت من الخزانة الشراشف النظيفة ، ورائحة مساعدي على الحائط متقمصاً وقفة نابليون ارتعشوا جميعاً عندما راووني ، وفتحت الحامل صينيتها وثنت يديها ثم مدتهما من جديد بألم وصعوبة .

— ماذا ، ما الأمر ؟ سألت ، وقد دهشت من نبرة صوتي الهلولة الواثقة إلى حد ألم أعده .

اجابت آنا نيكولايفنا بسرعة :

— وضعية احتراضية . وتابعت صب الماء في المحلول .

قلت ما طأ الكلمات :

— ها ... كا ... ذا ، ماذا إذا ، فلنعاين ...

صاحت آنا نيكولايفنا في الحال :

— اغسلي يدي ، الدكتور يا أكسينيا . كان وجهها احتفالياً وجاداً

كان الماء يسيل مزيلا الرغوة عن اليدين المحمرتين من الفرشاة . .
وحينذاك سألتُ آنا نيكولايفنا أسئلة تافهة مثل : هل أحضروها منذ
وقت بعيد ؟ من أين هي ؟

رمت بيلاجيا ايفانوفنا الفطاء جانبا ، وجلست على طرف السرير
أما أنا فآخذت أجس البطن المنتفخ بهدوء . أنت المرأة والنتصبت ، ثم
تشبثت بأصابعها بالفطاء . قلت وأنا أضع يدي بحذر على الجلد
المنبسط الحار والجاف .

— اهدئي . . . اهدئي . . ، اصبري . .

وفي الواقع كانت معاينتي للمريضة نافذة لا ضرورة لها خاصة
بعد أن أوضحت لي آنا نيكولايفنا صلحية الخبرة الكبيرة بحقيقة الامر ،
ولن أستطيع معرفة أي شيء جديد مهما استقصيت وفحصت ، فقد
كان حدسها صائبا تماما . وضعية مستعرضة . لكن ماذا بعد ؟ فهنا
امر واضح مالم .

تابعت الفحص . وقد احمر وجهي ، وجسست جهات البطن
كلها ، وكنت انظر من زاوية عيني في وجهي القابلتين ، كانتا جادتين
مركزتين معاً ، وقرأت في عيونهما استحسانا لشغلي وفي الواقع كانت
حركاتي واثقة وصحيحة وحاولت أن اخفي قلقي ما استطعت في أعماقي
والا أظهره مهما حدث .

— هكذا إذن — قلت متنفساً بعمق ونهضت من على السرير — بما
أنا لن نرى شيئا من الخارج أكثر مما رأينا ، فلنفحص من الداخل .

ولاح الاستحسان مرة ثانية في عيني آنا نيكولايفنا .

— يا أكسينيا . . .

مرة أخرى سال الماء .

« آه لو اقرأ دوديرليان(*) الآن » . فكرت بوحشة وأنا أغسل
بدي .

هيهات ، لا يمكن فعل هذا الآن . وماذا يمكن لدوديرليان أن ينفعني
في هذه اللحظة ؟ انزلت الرغبة الكثيفة ، ومسحت أصابعي باليود .

هههه الشرشف التنظيف تحت يدي بيلاجيا إيفانوفنا . وانحنيت
على الحامل وأخذت أفحصها فحصاً داخلياً وأنا حذر ووجل ، ولمعت
في ذاكرتي من حيث لا أدري غرفة العمليات في مشفى التوليد : مصابيح
كهروائية حارة ومضيئة في كرات حليبية ، أرض ذات بلاط رائع ،
صنابير وأدوات جراحية براقية متألثة في كل مكان ، والأستاذ في ثوبه
الأبيض الثلجي يعالج بيده الحامل ومن حوله ثلاثة أطباء مساعدين ،
وبعض الأطباء المتمرنين وحشد كبير من الطلاب . كان كل شيء جيداً ،
مضاء ، وآمنأ . أما هنا فأنا الطبيب الوحيد ، وبين يدي امرأة تتعذب ،
إنني مسؤول عنها . لكن كيف يمكنني مساعدتها ؟ لا أعرف ، لأنني لم
أر عملية توليد عن قرب إلا مرتين في حياتي كلها في مشفى الجامعة ،
وهاتان العمليتان كانتا صاديتين تماماً . الآن أقوم بالفحص وهذا لا يهون
الامر عليّ ولا يخفف الألم على الحامل .

إنني لا أفهم شيئاً البتة ولا أستطيع فحصها من الداخل .

لقد حان الوقت لاتخاذ قرار ما .

وضعية اعتراضية ! بما أن الوضعية اعتراضية ، إذاً يجب ...

يجب أن ...

* دوديرليان : اسم مؤلف الدليل الطبي العام الذي يذكره بولفاكوف في بعض
قصصه .

— تحويل قلمي . قالت آنا نيكولايفنا التي نفذ صبرها وكأنها تحدث نفسها .

كان يمكن لطبيب قديم خبير أن يعبس في وجهها لأنها تحترق انفها باستنتاجاتها المتسعة قبل أن يبدي الطبيب رأيه، لكنني إنسان متسامح لا انحس كثيرا .

— نعم . — أكدت بثقة ظاهرة — تحويل قلمي .

ولاحث ألام عيني صفحات دوديرليان : تحويل مباشر ... تحويل مركب ... تحويل غير مباشر .

صفحات وصفحات .. وعليها رسومات ، حوض ، أجنة مضغوطة معوجة برؤوس ضخمة ، يد متدلية معلقة بالثبوتة ...

قرأت هذا منذ زمن ليس ببعيد ، بل لقد وضعت خطوطاً تحت كل كلمة متمعناً فيها . وتصورت ذهنياً العلاقة بين الأجزاء وأسلوب العلاج كله . وقد أهيا لي وقتها أن النص قد طبع برمته في دماغي . أما الآن فلا أذكر من كل ما قرأت إلا عبارة واحدة :

... **الوضعية الاعتراضية هي وضعية ولادة عسيرة جداً** .

الحقيقة هي الحقيقة ، وضعية ولادة عسيرة جداً ، ليست عسيرة على المرأة فقط ، بل على الطبيب الذي أنهى دراسته الجامعية منذ ستة أشهر فقط . قلت وأنا أنفض :

— حسناً ، سنفعل كل شيء .

انتعش وجه آنا نيكولايفنا . وأشارت إلى مساحدي ديميان كوكيتش :
يُحضّر الكلوروفورم .

رائع انها اشارت بذلك فلم اكن متاكداً تماماً أن العملية تنجرى
بالتخدير . بالتخدير طبعاً . وكيف يكون غير ذلك !

على كل حال لا بد من مراجعة دوديرليان ...

قلت بعد أن غسلت يدي :

— حسناً ! حضروا المخدر ، وأرقلوها ، وساعود حالا' ساحضر
سجائري من البيت فقط .

أجابت آنا نيكولايفنا :

— حسناً يا دكتور . ففي الوقت متسع .

نشتفت يدي' ، ووضعت الممرضة المعطف على كتفي ، ثم ركضت
نحو البيت دون أن ادخل يدي في الكمين .

اضأت المصباح في غرفة المكتب ، واتجهت ، دون أن أنزع القبعة ،
نحو رفوف المكتبة .

— هذا هو دوديرليان . « علم التوليد الجراحي » .

أخذت اقلب الصفحات الصقيلة بسرعة .

... تعرضت لعملية التحويل الام للخطر

تسلل البرد إلى ظهري على طول العمود الفقري .

ينحصر الخطر الأساسي في إمكانية تمزق الرحم تلقائياً .

فل ... سقا ... ئ ... يا ...

... إذا واجه الجراح عند إدخال اليدين في الرحم صعوبة
في الوصول إلى الرجلين بسبب عدم كفاية المتسع الناتج عن
تقلص جدران الرحم ، فعليه عدم متابعة المحاولات لتحقيق
التحويل .

حسناً ! هنا إذا استطعت بفضل اعجوبة ما ، أن أحدد هذه
« الصعوبة » وقتها لن أقدم على « متابعة المحاولات » . لكن ما عساي
أفعل إن كنت سأقوم بمعالجة امرأة مخدرة من قرية دولتسيف ؟

... يحظر قطعياً محاولة الوصول إلى القدمين من محاذاة
ظهر الجنين ...

سنأخذ هذا بعين الاعتبار .

بعد الإمساك بالرجل العليا خطأ لأنه قد يؤدي إلى التواء
عمود الجنين الفقري ، وهذا يفضي إلى صعوبات كبيرة في
سحب الجنين ، مما يتمخض عنه عواقب وخيمة .

« عواقب وخيمة » يا لها من كلمات ضبابية ، لكنها مع ذلك شديدة
الإيحاء ! لكن ماذا سيحدث لو أصبح زوج المرأة الدوالتييفية أرملة ؟
نشفت العرق عن جبينني ، واستجمعت قواي ، وحاولت التركيز على
الاشياء المهمة فقط : أي ماذا يجب علي أن أفعل وكيف وإلى أين أدخل
يدي . لكن وعلى الرغم من تجاوزي البعض الأسطر السود التي لا يمكن
قراءتها ، فقد التقيت بأشياء جديدة مخيفة ، كانت تقفز إلى عيني .

... نظراً لخطر التمزق الهائل ...

... التحويل الداخلي المركب هو إحدى عمليات التوليد
الجراحية الخطرة على الأم .

وفي النهاية :

... مع كل تأخير يتضاعف الخطر .

هذا كاف ! لقد أتت القراءة أكلها ، إذ اختلطت الأشياء في رأسي
اختلاطاً تاماً ، واقتنعت للحظة أنني أجهل كل شيء . ولا سيما التحويل
الذي سأجريه : مركب ، غير مركب ، مباشر ، غير مباشر ...

تركت دوديرليان وارتميت على الأريكة محاولاً ترتيب افكاري
المتناثرة ما استطعت ثم نظرت إلى الساعة . آه يا للسيطان ! ظهر أنني
في الغرفة منذ اثنتي عشرة دقيقة بينما ينتظرونني هناك ..

... كل ساعة تأخر ...

تتكون الساعة من دقائق ، وتنقضي الدقائق في حالة كهذه بسرعة
شديدة .

طرحت دوديرليان جانباً ، وركضت عائداً إلى المشفى .

كان كل شيء جاهزاً هناك . ووقف مساعدي عند الطاولة وقد أعد
القناع وقارورة الكافورفرم .

تمددت الحامل على طاولة العمليات ثم أنينا متواصلاً ينتثر في
أنحاء المشفى . قالت بيلاجيا إيغانوفنا بصوت وديع وهي تنحني على
الحامل :

— أصبري ، أصبري ، سيساعدك الدكتور الآن .

— آخ ، لا أستطيع... لا أستطيع... لن أستطيع الصبر...!

قالت القابلة :

.. لا تخافي ... لا تخافي ، سنعطيك الآن ما تسمينه وبعدها لن
تسمعي شيئاً .

سال الماء من الصنبور مصدراً خريراً ، فآخذنا أنا ، وأنا نيكولايفنا
ننظف أيدينا المكشوفة حتى المرافق ونفسلها ... وراحت أنا نيكولايفنا
تخبرني ، - بينما كان أنين المريضة ، وصراخها يملآن الأرجاء - كيف كان
الجراح ، الخبير الذي عمل قلبي في المشفى يجري عملية التحويل . كنت
اسمعها متلهفاً ، محاولاً ألا أفوت كلمة واحدة .

لقد علمتني هذه الدقائق العشرة أكثر مما تعلمت من علم التوليد
عندما اجتزت الامتحانات بتقدير « ممتاز » .

لقد عرفت من الكلمات المتقطعة ، والجمل الناقصة ، والملاحظات
الرمية بشكل عابر ، الأشياء الأساسية التي لا يمكن العثور عليها في أي
كتاب طبي . إضافة إلى ذلك فقد غلكني في تلك اللحظة - عندما أخذت
امسح يدي المناليتين النظيفتين الناصعتين بأشاش المعقم - الحزم
وتوضحت في ذهني الخطوات المحددة والثابتة التي سأقوم بها ، تحويل
مركب أو غير مركب ... لا ضرورة للتفكير الآن .

كل هذه الكلمات العلمية لا طائل تحتها في هذه اللحظة . المهم شيء
واحد فقط :

أن أولج يداً في الداخل بينما استخدم الثانية للقيام بالتحويل من
الخارج .. وليس الاعتماد هنا على الكتب بل على التقدير الصحيح
والحركة المناسبة التي لا يصلح الطبيب بدونهما لأي شيء . نواظب ولكن
في منتهى الحذر على خفض ساق الجنين إلى الأسفل لانتشاله منها .

يجب أن أكون هادئاً وحذراً ، وفي الوقت ذاته في منتهى الحزم
والشجاعة .

— هيا ! أمرت مساعدي ومسحت يديّ باليود .

طلوت بيلاجيا إيفانوفنا في تلك اللحظة يدي الحامل وغطى مساعدي وجهها المتوجع بالقناع .

أخذت أظفر الكلوروفورم ببطء من الزجاجاة الصفراء الغامقة اللون فانتشرت في الغرفة رائحة مقززة والخزة تبعث على الإقياء . وغدت وجوه القابلتين والمساعد صارمة مذهولة .

— آي آي ، صرخت المرأة فجأة وحاولت بتشنج وحرقة ، الثوان نزع القناع .

— تماسكي .

وأمسكتها بيلاجيا إيفانوفنا من ساعديها فتنتهما ووضعتهما على صدرها . فصرخت المرأة عدة مرات محاولة إبعاد القناع عن وجهها ، لكن صراخها أخذ يخبو شيئاً فشيئاً ... إلى أن همهمت :

— ها — آ — دموني آ ...

واستمرت همهماتهن بالتلاشي حتى أطبق الصمت في الغرفة البيضاء.

كانت النقاط التي لا لون لها تتساقط وتتساقط على الأشخاص الأبيض ..

— التبض يا بيلاجيا إيفانوفنا ؟

— حسناً .

ورفعت بيلاجيا إيفانوفنا يد المرأة ثم تركتها ، فهوت ميتة كالعود الدابل فوق الشرشف . فأبعد مساعدي القناع وفحص حدقة عينها .

لقد نامت .

.
.

غاصت يداي في بركة دم حتى المرفقين . وأخذ الدم يسيل على
الشرف ممزوجاً ببعض القطع المتخثرة ، وتناثر الشاش المحمر في
كل مكان . أما بيلاجيا إيفانوفنا فأخذت تهز الوليد وترتد على ظهره
بينما كانت أكسينيا تفرقع بالدلاء ، لتملأ الطست بالماء ؛ ثم اخلوا
بنطسون الوليد في الماء الحار تارة وفي البارد تارة أخرى . كان ساكناً
وراسه هامد بلا حياة وكأنه معلق بخيط يتأرجح من ناحية إلى أخرى .
وفجأة سُمِعَ صوت لا يشبه أي صوت وزفرة لا تشبه أي زفرة ثم
تناهى إلى أسماعنا صوت ضعيف مبحوح هو الصراخ الأول .

صاحت بيلاجيا إيفانوفنا :

— إنه حيّ ، حيّ . تم مددت الوليد على الحشيرة . والام حية
أيضاً . لحسن الحظ لم تحصل مضاعفات خطيرة ، ساجس تبضها
بنفسي . إنه متوازن ودقيق . وأخذ مساعدي يهز الولادة برفق من
كتفها ويقول :

— هيا ! استيقظي يا خالة ، يا خالة .

القوا الشراشف المدماة جانباً وغطوا الأم بسرعة بالشراشف النظيفة
ثم نقلها مساعدي وأكسينيا إلى العنبر وأخذوا الوليد محمولاً على
الوسادة كان وجه الوليد الصغير الأسمر المجمع يطل من فتحة
اللفافة ، مطلقاً بكاء رقيقاً لا ينقطع .

سال الماء من الصنابير غزيراً ، وسحبت أنا نيكولا لايفنا بشوق
نفساً طويلاً من سيجارتها ثم طبقت جفنيها من أثر الدخان وسعلت .

— آه يا دكتور ! لقد أنجزت التحويل بطريقة رائعة ، وبثقة
لا متناهية .

واشرمت أنظف يدي بالفرشاة بجدية ، وانظر إليها من زاوية عيني:
الا تسخر مني يا ترى ؟ لكن ، أو تسمت على وجهها تعابير صادقة معتزة
راضية ... فامتلا قلبي بالغبطة ، وأنا أنظر إلى الفوضى البيضاء المدماة
من حولي ، إلى الماء الأحمر في الطست ، وشعرت بنفسي منتصرا . غير
أن وسواسا من الشك أخذ يثور في أعماقي .

قلت : — سنرى فيما بعد ماذا سيحدث . فنظرت إليّ أنا نيكولا يفنا
مندهشة :

— ماذا يمكن أن يحدث ؟ كل شيء على ما يرام .

فتمتتم مجيبا بكلمات غامضة :

— لقد كنت — في الحقيقة — أود أن أقول : هل كل شيء على ما يرام
بالنسبة إلى الأم ؟ ألم أوذها أثناء العملية ؟ .. هذا هو الشيء الذي
كان يمزق قلبي . إذ إن معرفتي بعلم التوليد ما هي إلا مقتطفات جمعتها
من الكتب وهي أبعد ما تكون عن معرفة الحاذق المختص . التمزق ؛ لكن
كيف يمكن معرفته ؟ ومتى ستتاح لنا إمكانية اكتشافه ؟ الآن يا ترى أم
يمكن أن تكون فيما بعد ؟ .. الأفضل أن أكف عن هذا الموضوع الآن .

— لكن ، قد يحدث ، قلت ، هناك إمكانية العدوى . وكررت العبارة
الأولى من أحد الكتب الجامعية .

— آه هكنا — قالت أنا نيكولا يفنا وهي تمط الكلمة . لن يحدث
مكروه إن شاء الله ، ومن أين ؟ كل شيء نظيف ومعقم .

كانت الساعة الثانية في بدايتها عندما عدت الى بيتي فميزت في بقعة ضوء من المصباح على الطاولة في غرفة المكتب ، دويرليان المفتوح بسلام على صفحة « مخاطر التحويل » وتذكرت كيف جلست منذ ساعة لعب الشاي البارد وأقلب صفحاته . عندئذ حدث شيء طريف : كل الأسطر التي لم يكن بإمكانني قراءتها أصبحت مفهومة تماماً بعد أن اضيئت إضاءة جيدة ، وفهمت في نهاية المطاف هنا في ضوء المصباح في ليل هذا الريف النائي ما تعنيه المعرفة الحقيقية .

« التجربة الكبيرة » نتحقق في القرية – فكرت وأنا انام – لكن لا بد من القراءة ايضاً ، القراءة أكثر فأكثر .



العاصفة الثلجية

إما أن تموي كوحش مفترس
أو تبكي كطفل صغير

بدأت هذه القصة بحسب ما تقول أكسينيا التي تعرف كل شيء -
منذما وقع الحاسب (بالتشيكوف) الذي يتطن في قرية (شالوميتوفا)
في حب ابنة المهندس الزراعي . كان حباً ملتهباً أنهك قلب العاشق المتعس
سافر إلى (غراشيفو) - وهي مركز القضاء - فاشترى لنفسه طقمًا
رائعاً جداً ، ومن المحتمل أن تكون الخطوط الرمادية على بنطال الحاسب
هي التي قررت مصير هذا الرجل البائس ، فقد وافقت ابنة المهندس
الزراعي أن تصبح زوجة له .

أما أنا فما زلت طبيب مشفى (نيكولسك) الواقعة في طرف قصي
من أطراف المحافظة ، وقد أصبحت مشهوراً جداً بعد أن بترت رجل
فتاة وقعت في مطبخ الكتان ، حتى كدت أقتل من وطأة المجد والشهرة .

أصبح يائيني إلى العيادة عبر الطريق الممهدة لعربات التزلج على
الثلج نحو مئة مريض من الفلاحين يومياً ، حتى لم يعد يتبقى لي وقت
لتناول الغداء . إن علم الحاسب علم صارم جداً ، فلنفترض أنني أقضي
مع كل مريض من زبائني خمس دقائق فقط ... خمساً ! فإن كل
خمس مئة دقيقة تساوي ثماني ساعات وعشرين دقيقة . على نحو متواصل
انتبهوا ! فضلاً على ذلك عندي قسم للمرضى المقيمين في المشفى يتسع
للثلاثين شخصاً ، إضافة إلى أنني أجري العمليات الجراحية .

كنت ، باختصار ، أعود من المستشفى في التاسعة ليلاً ، فاقداً الرغبة في الأكل أو الشراب أو النوم ، فاقداً الرغبة في كل شيء ، سوى رغبة واحدة هي ألا يأتي أحدهم ليدعوني إلى عملية توليد ، فقد أخذوني في الأسبوع الأخير خمس مرات في الليل عبر طرق التزلج الثلجية .

ظهرت غشاوة رطبة ومعتمة في عيني ، وظهرت غشون عمودية تشبه الدودة ما بين عيني . وحلمت في الليل - عبر الضباب المتقلب - بعملية جراحية مخففة : أضلاع عارية . ويداي مغموستان بالدم البشري ، فاستيقظت وأنا أشعر بالبرد ، وبالزوجة تعم جسدي على الرغم من اشتعال الموقد الهولندي .

كنت أمشي في الجولة التفقدية مشية مندفعة ، ويجر مسلعي ومساعدي وممرضتان أرجلهم ورائي . وتوقفت فجأة عند سرير نمدد فوقه مريض ذاب في حرارته ، وتنفس تنفساً شاكياً ، فصعرت من ذهني كل شيء فيه ، وتلمست بأصبعي جلده الجاف ، ونظرت في حدقته لم ربت على أضلامه ، وسمعت كيف كان قلبه ينبض خفية . وفكرت بشيء واحد فقط ، كيف يمكنني إنقلذه ؟ وكيف يمكنني إنقلد هذا وذلك والجميع .

كانت المعركة تبدأ كل صباح على ضوء الثلج الباهت ، ولا تنتهي إلا بتلاؤ ضوء المصباح الأصفر الساطع . قلت في نفسي بعد أن رجعت إلى غرفتي ليلاً : كيف ينتهي هذا كله ؟ أتمنى أن أعرف . فالمرأجون سيأتون عبر طرق التزائج الثلجية في كانون الثاني وشباط وآذار .

كتببت إلى المركز في (غراتشيفكو) ، وذكرت بأدب جم أن منطقة (نيكوالسك) تحتاج إلى طبيب ثلثي . وسافرت الرسالة ، على طريق مرصوص عبر محيط من الثلج ، مسافة أربعين فرسخاً . وجاء الجواب بعد ثلاثة أيام ، كتبوا : أنه ... بالطبع ، حتماً ... بالطبع لكن ليس الآن ، إذ لا يلتحق أي طبيب الآن ... ثم ختموا الرسالة ببعض التقرير الطيب لعملي مع التمنيات بالنجاح المستمر .

أحيا تشجيعهم آمالي ، فتابعتم وضع الضمانات القطنية ، وحقق
المصول ضد الخانوق ، وإجراء عمليات للدمامل الكبيرة ، وتجبير الكسور
بالربطات الجبسية .

يوم الثلاثاء لم يأتني منه مراجع فحسب ، بل وصل العدد إلى
مئة وخمسة عشر ، وأنهيت المعاينات في الساعة التاسعة مساء ، وغفوت
وأنا أحاول أن أخمن كم سيكون عدد المراجعين غداً ، ثم حلمت أن عددهم
قد بلغ تسعمئة مراجع .

أطل الصباح عبر النافذة الصغيرة لغرفة النوم أبيض على نحو غير
مألوف ، ففتحت عيني دون أن أفهم سبب استيقاظي ، ثم فهمت : أنه
القرع .

ـ يا دكتور ! هل استغفلت ؟

ومررت الصوت ، إنه صوت القابلة (بيلاجيا ايفانوفنا) .

فأجبته ، وأنا بين الحلم واليقظة بصوت متوحش :

ـ نعم .

ـ أتيت لأقول لك ألا تستعجل ، إذ لم يحضر إلى المستشفى غير
شخصين .

ـ ماذا بك ؟ أتمرحين ؟!

ـ لا ، أقول الصدق ، إنها العاصفة . وكررت ذلك بفرح مبرقع
الباب :

إنها العاصفة الثلجية يا دكتور . أما الانان اللذان حضرا فأسنانهما
منخورة وسيقلعهما ديميلن لوكتيتس .

— يا له من ... ثم ففتت من سريري دون أن أعرف السبب . يا له من طقس رائع !

أخذت أمشي وأطوف في مسكني الفاخر طوال النهار (كان بيت الطبيب مؤلفاً من ست غرف ، ولسبب ما من طابقين ، ثلاث غرف في الأعلى وثلاث أخرى في الأسفل مع المطبخ) ، وورحت أصغر موسيقاً أو برالية ، وإدخن ، وانقرُ على شبك النافذة ... وخلف الشبائيك حدث شيء لم أر مثله في حياتي كلها : لم يكن ثمة سماء ولا أرض أيضاً ؛ كلن البياض يدور ويلتف متعرجاً متمللاً طولاً وعرضاً ، وكان الشيطان يلهو بمسحوق الأسنان الأبيض . وفي نهاية النهار أصدرت أمري لأكسينيا التي تقوم بمهام الطبخ والتنظيف في شقة الطبيب ، كي تملأ ثلاثة دلاء ماء ، وكي تغلي الماء في المرجل ؛ إذ إنني لم استحم منذ شهر .

أخرجت بمساعدة أكسينيا طستاً كبيراً متراهمي الأطراف من غرفة المؤونة ، ووضعته في المطبخ ، (الحديث عن الحملات في (نيكولسكا) شيء مستحيل فهي موجودة في المشافي الكبيرة فقط ، وحتى هناك تكون معطلة) .

هنا في الساعة الثانية اهتزاز الشبكة الحديدية في النافذة . وجلست في الطست عارياً ، ورغوة الصابون على رأسي .

— هذا رائع ... ! — تمتمتُ بلذة وأنا أصبُ الماء الحار على ظهري — رائع ، رائع ، بعد ذلك — أتعرفون؟ — سنتناول طعام الغداء ، ثم ننام ؛ وإذا شبت يوماً فلن يكون مهماً أن يأتي إلى العيادة غداً مئة وخمسون مراجعاً .

— ما الأخبار يا أكسينيا .

— سيتزوج المحاسب في ضيعة (شالوميتوفا) .

— صحيح ؟ ! وهل وافقت ؟

— والله ! وغننت أكسينيا وهي تقرقع بالدلاء : ها ... ش ...
... قة ...

— وهل الخطيبة جميلة ؟

— أجمل الجميلات ، شقراء وحيقة القند .

— قولي من فضلك .

وفي تلك اللحظة قرع الباب ؛ فصببت الماء على جسمي غاضباً ،
واصختُ السمع .

قالت أكسينيا بصوت مرتفع :

— الدكتور يستحم .

وقرقع صوت جهمر بور ... بار ...

ثم قالت لي أكسينيا عبر ثقب الباب :

— هذه رسالة لك يا دكتور .

— افتحي الباب قليلاً .

وخرجت من الطست منقبضاً ، وساخطاً على قدري ، ثم أخذت
من يد أكسينيا مظلوفاً رطباً مهلهلاً .

قلت النفسي بثقة ضعيفة :

— كلا ، مستحيل ، لن أخرج من هذا الطست بتاتاً ، فانا إنسان
أيضاً ، ثم فضضت المظروف وانا في الطست .

مذكرات طبيب مـ

« زميلي العزيز (إشارة تعجب كبيرة) ، انزع (مشطوبة) ، أرجوك رجاءً شديداً أن تحضر بسرعة . فقد فقدت المرأة وعيها ، وهي تنزف نتيجة الضربة قوية على الرأس من تجويف (مشطوبة) أنفها وفمها . لا أستطيع تدبر الأمر ، نبضها سيء . يوجد كافور . الدكتور (التوقيع غير واضح) » .

فكرت بحزن وأنا أتأمل الحطاب الملتهب في الموقد : « ما أسوأ حظي في هذه الحياة ! » .

— هل أحضر الرسالة رجل ؟

— نعم رجل .

— دعيه يدخل إلى هنا .

دخل الرجل قبداً لي كأنه رجل من العصر الروماني القديم ، بسبب خوذته الفاخرة التي يضعها فوق القبعة ذات الأذنين ، وقد ارتدى معطفاً من فرو الدئلب .

لسمعتني لفحة برد .

سألته وأنا أغطي جسدي الذي لم ينظف تماماً :

— لماذا تضع الخوذة ؟ .

فاجاب الرجل الروماني :

— أنا رجل إطفاء من (شالوميتوفا) . . والآن وقت مناوبتي . .

— من الدكتور الذي كتب الرسالة ؟

— إنه ضيف عند مهندسنا الزراعي ، طبيب شاب . لقد حلت
بنا مصيبة كبيرة ..

— ومن هي المرأة ؟

— إنها خطيبة المحاسب .

تاوهت أكسينبا من خلف الباب .

— ما الذي حدث لها ؟ (كان مسموماً كيف التصق جسد أكسينبا
بالباب) .

— البارجة كانت الخطيبة ، وبعد الخطبة أراد المحاسب
ان ينزله خطيبته على عربة التزلج ، فاسرج الحصان ، و ربط
المزالج ، وأركبها في المزلجة حتى الباب الخارجي ، وهناك قفز الحصان
من مكانه قفز د جامحة فرمى الخطيبة وارتطم جبينها بالعضادة . وهكذا
كان ... يالها من مصيبة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ... إنهم يركضون
وراء المحاسب في كل مكان كي لا ينتحر ، لقد جنّ .

قلت شاكياً :

— لكنني استحم ، لماذا لم تأتوا بها إلى هنا ؟

وصببت الماء على رأسي فذهبت رغوة الصابون في الطست .

أجاب رجل الإطفاء بتأثر عميق ، وقد ننى يديه كأنه يصلي :

— هذا مستحيل أيها الطبيب المحترم ، لم نستطع ذلك ، ستموت
الفصاة .

... و كيف نستطيع السفر ؟ والعاصفة !

— لقد هدأت ، ماذا بك ؟ لقد هدأت تماماً ، ثم إن الجياد سريعة ومصفوفة بعضها وراء بعض ، سنصل إلى هناك في ظرف ساعة ..

اطلقت انيناً مقتضباً ، ثم خرجت من الطست ، وصببت دلوين من الماء على جسدي بحذر ، وجلست أقرقصاء قرب نار الموقد مقرناً رأسي من النار ليخف شعري قليلاً . « بعد رحلة كهذه لابد أن أصاب بالتهاب الرئتين ، بل بالتهاب رئوي فسيّح . لكن . الأهم من ذلك هو ماذا سأفعل بها ؟ من الواضح — بحسب الرسالة — أن هذا الطبيب أقل خبرة مني . لكنني لا أعرف شيئاً ، ولم أكتسب خلال نصف عام إلا بعض المعارف العملية ، أما هو فأقل . يبدو واضحاً أنه تخرج من الجامعة للتو ، وأنه يظنني طبيباً مخضماً .. » . لم لاحظ ، وأنا أفكر على هذا النحو ، كيف أوالديت ملابس التي لم تكن بسيطة وثقلاً ، سروال وبلوز وجزمة شتوية طويلة ، فوق البلوز جاكيت جلدي وفوقه معطف ثم فروة من جلد الخروف ، وقبعة ، وجرّ حقيبتني التي حوت : الكافيتين والكافور والورفين والأدوية ، وملاقط ، ومواد معقمة ومحقنة ومسباراً ومسدساً من طراز براونينغ ، وسجائر وكبريتاً وساعة وساعة .

بدأ الأمر غير مخيف البتة على الرغم من العتمة التي ذوبت النهار .

عندما صرنا خارج سياج القرية ، كانت العاصفة تصفر صغيراً ضعيفاً منحرفة باتجاه الخد الأيسر . وحجب رجل الإطفاء بجسده الضخم عني كفل الجوالد الأول . كانت جيادنا قوية فعلاً ، تمشي بحيوية ونشاط ، وتجري الزلاجات التي اندفعت في الأرض الوعرة . تكومت داخل العربة فاستدقات بسرعة ، وفكرت بالتهاب الرئتين الغشائي ، وبإصابة الفتاة ، فقد تكون أصيبت بلزجاج في عظام الجمجمة من الداخل ، وانفرت في سظية في الدماغ .. سألت عبر ياقة القرو :

— أجيلد للإطفاء هذه ؟

— نعم ، نعم . اجاب الحوذي دون ان يلتفت .

— وسأذا فعل لها الطبيب ؟

— آ ، نعم ، او ، هو ، اتعلم ؟ إنه مختص بالأمراض التناسلية نعم . . نعم .

كانت العاصفة تعوي في الدغل (هو — هو) ثم أخذت تصفر صغيراً متقطعاً من الجانب ناطرة الثلج ، ثم اشتدت بسرعة فأخذت تهزني وتهزني حتى صرت في حمامات (ساندوفسك) بموسكو ، حيث دخلت بفروتي إلى غرفة المشلح مباشرة ، ثم إلى غرفة البخار حيث غرقت في عراقي . فيما بعد اشتعل نبراس ، ولقحتني البرد ، ففتحت عيني فرايت خوذة حمراء تتلأل ، فظننت أن ثمة حريقاً ، وعندما انتبهت فهمت أننا وصلنا وأن العربّة عند عتبة بيت أبيض ذي الصمدة ، مبني على ما يبدو في عهد (نيكولاي الأول) . كان الظلام دامساً حولي . وحضر لاستقبالي رجال الإطفاء الذين يرقص الالهب فوق رؤوسهم . عندها سحبت الساعة من جيب الفروية ونظرت : كانت الساعة قد بلغت الخامسة . إذاً لقد مشينا ساعتين ونصفاً . وليس ساعة واحدة فقط . عبرت المدخل نصف نائم مبتلاً ، وكانني في لفافة داخل سترتي الجلدية .

بهر ضوء المصباح عيني من الجانب ، وانعكست أشعة ضوئه على الأرض الملونة ، وهنا ركض نحوي شاب أشقر الشعر متعب العينين يرتدي سروالاً مكويًا للتو ، وكانت ربطة عنقه ذات النواثر السود متلدة في إحدى الجهات ومنحشرة في الصدرية كحلبة ، وكانت بزته قشبية جديدة مكوية ، وكان ثنياتها من المعدن . ألوح الشاب بيديه ثم التصق بي وتشببت بفروتي وهزني وهو يصرخ :

— عزيزي ، يا دكتور . . . أسرع ، ستموت ، أنا القتال — ونظر إلى مكان ما على جانبه فاتحاً عينيه بقوة سوداوية — ثم قال لأحدهم :

— انا اتايل ، نعم هكذا . ثم اخذ ينتحب ، وامسك بشعره الخفيف يشده ورايت كيف كان يقتلع خصل شعره فعلا ، ويلغها على اصابعه .

— كف عن هذا . قلت له وضغطت على يده .

تسفل رجل انتباهه ، ونراا كضت بعض النسوة . واخذ رجل آخر فروتي . وقادوني عبر الممرات المزينة نحو السرير الأبيض ، نهض الطبيب للاقائي ، كانت عيناه متعبتين ذاهلتين ، وظهرت فيهما للحظة ملامح الدهشة إذ رأني شاباً مثله . وعموماً فقد كنا متشابهين إلى حد كبير . صورتين لوجه واحد من عمر واحد . لكنه فرح فيما بعد لحضورني حتى كاد يطير .

— ما أسعدني . . . يا رميلي ! . . . هكذا . . . انرى ؟ النرض ينخفض ، أنا — في حقيقة الامر — مختص بالامراض التناسلية : انني سعيد جداً بلجيتك .

كان تمة محقنة وبضع حبيبات من الزيت الاسفر وضعب على قطع من الناس فوق الطاولة .

تناهى إلى سمعي بكاء المحاسب عبر الباب المحكم الاغلاق ، وظهرت هيئة امرأة ترتدي الأبيض عند كتفي . كانت غرفة النوم مضاه نصف إضاءة ، وقد غطوا المصباح من الجانب بشماش أخضر . ووجت الضوء الأخضر توسد المخدة وجه أصفر اللون . شعر أشقر تفرق وتدلّت خصلته فوق الوجه . كلن الأنف حاداً . وامتلات فتحتاه بقطن غدا أحمر من النرف .

همس لي الطبيب : — النبض . . .

وتناولت اليد الميتة بحركة اعتيادية وضغطت بأصابعي فارتعشت كان النبض تحت أصابعي ضعيفاً وسريعاً ثم اخذ يتقطع وبعدها أصبح

خيطياً . شعرت ببرد اعتيادي في بطني — كما كان يحدث عادة عندما كنت اوى الموت عن قرب — إنني أكره الموت . واستطعت كسر حجاب الزيت الكثيف وسحبها في المحقنة ، وعبنا حقنت الفتاة في يدها حقناً ميكانيكياً ، فاختلج فكها الأسفل ثم ضغط على الأعلى ، ثم تدلى ، وارتعس الجسد تحت الغطاء وكان البرد لسهه . ضعف النبض تحت إصبعي ثم تراخى الى أن اختفت النبضة الأخيرة . همست في اذن الطبيب :

— لقد ماتت .

القت الهيئة البيضاء ، ذات الشعر الاشيب بنفسها فوق غطاء السرير الرتيب وتنبثت به وهي ترتجف .

— اهديني ، اهديني ! — قلت في اذن المرأة ذات اللباس الابيض اما الطبيب فملل نحو الباب منالماً وقال بصوت خفيض :

— إنه يعدبني .

عندما تركنا الام الباكية في غرفة النوم ، والم نقل شيئاً لأحد ، ثم قلنا المحاسب الى غرفة بعيدة .

— إذا لم تتركنا فحقنك بهذا الدواء ، فإننا لن نستطيع فعل أي شيء . إنك تعلمنا وتعميق عملنا . عندها وافق وخلع جاكيتته وهو يبكي بهدوء ، فرفعنا ذراع قميص الخطبة الاحتفالي وحقناه بالمورفين ، ثم ذهب الطبيب الى غرفة المتوفاة وكأنه يريد مساعدتها ، ووقفت أنا عند المحاسب الذي ساعده المورفين أكثر بكثير مما كنت أتوقع ، إذ أخذ بعد ربع ساعة يبكي ويهذي بصورة أهذا ، ثم وضع وجهه الباكى على يديه ونام ، ولم يعد يسمع الجلبة والعويل والصراخ الذي يصم الأذان ...

قال لي الطبيب في الدهليز همساً :

— اسمع يا زميلي إن السفر خطير جداً ، ومن المحتمل أن تضيقوا ،
ابق وبت هنا . . .

— لا ، لا ، لا لا أستطيع ، سأسافر مهما كلف الأمر ، فقد وعدني
أصحاب البيت أن يعيدوني الآن .

— نعم سيعيدونك . لكن ألا ترى . . .

— هندي ثلاثة مصابين بالتيفوس لا يمكن تركهم ، ويجب أن
أعينهم في الليل .

— الأمر لك إذا .

مزج الكحول ببعض الماء وأعطاني كي اشرب . وهناك في الدهليز
أكلت قطعة لحم ، فشعرت بدفء داخلي ، وبدهاب الحزن عن قلبي
بعض الشيء . ثم عدت للمرة الأخيرة إلى غرفة النوم ، وألقيت نظرة
على المتوفاة ، وذهبت بعدها إلى غرفة المحاسب حيث تركت حجابة من
المورفين للطبيب الشاب ، وخرجت متدبرا نحو الباب . وهناك عوت
العاصفة ، وطاطات الجياد المغطاة بالثلج رؤوسها ، وتأرجع ضوء المشعل

سالت وأنا أفطى فدي :

— أتعرف الطريق ؟

فأجاب الحوذي بحزن شديد (ولم تكن الخوذة على رأسه)

— نعم أعرفه ، لكن تستطيع قضاء الليلة هنا . . .

كان واضحاً — حتى في الذني قبعته — أنه لا يرغب بالسفر إطلاقاً .

وأضاف الشخص الثاني الذي يمسك بالمشعل المغيظ :

— الأفضل ان تبقى فالطرقات سيئة .

فصرخت بصوت عال :

— سنسافر إنها اثنا عشر فرسخاً لا غير . عندي مرضى حالتهم سيئة . ثم اندسست في المزلجة .

أقرت — وهذا ما لم اقله بعد لأحد — ان فكرة البقاء في بيت تحل فيه المصيبة ، وتخور فيه قواي ، وتندم فالدتي ، بدت لي غير محتملة .

هوى الحوذي بلا أمل على مقعده ، وتهادى ثم احتدل ، وقفزت الجياد خارج الباب الخارجي ، فاخفتي المشعل وكأته ابتعد أو انطلقا ، وخطر في ذهني بعد دقيقة ان التفت إلى الخلف ، فالتفت بصعوبة ، ولاحظت أن المشعل لم يختف وحده ، بل اختفت (شالوميتوفا) برمتها ، بكل جهاتها كما لو أنها كانت في الحطم . فوخزني ذلك وخزاً مؤلماً .

— لكن ، هذا رائع ... — ليس هذا ما أفكر به ، وليس هذا ما قلته . خبات أنفي ثانية وغطبتة حتى أصبح الأمر مزعجاً . لقد التفت الكون كله في كتلة واحدة وأخذت العاصفة تهزها من كل الجهات . واندفعت الى رأسي فكرة :

— أو ليس الأفضل ان نعود ؟

لكنني طردتها وحشرت نفسي في القش في قاع المزلجة ، كما لو أنني في زورق ، وانحدرتنا ، فاطبقت جفني ، وتذكرت فوراً الوجه الأبيض والمصباح اللفظي بخرقه خضراء ، وغدا كل شيء واضحاً في ذهني فجأة : « إنه كسر في قاعدة الجمجمة ... نعم نعم ... هكذا بالضبط . وازدادت تقني ان هذا التشخيص صحيح . إنه الإلهام . ولكن ما

الفائدة ؟ لا فائدة من معرفة هذا الآن ، بل لم يكن ثمة فائدة من قبل ،
وماذا تفعل بهذه المعرفة ؟ يا له من قدر مخيف ! ! إنه إن السخيف
والرهيب أن يعيش المرء هذه الحياة ! ماذا سيحدث يا ترى في بيت
المهندس الزراعي ؟! إن التفكير في هذا يبعث على الحزن والامتعاض .

أخذت أشفق على نفسي من حياتي الصعبة ، فالناس نيام الآن
والمواقف مشتتة ؛ أما أنا فلم أستطع أن أتم استحمامي ، تحملني
العاصفة كورقة ، وهكذا ساصل الى البيت ، وهناك لن يكون الأمر
أفضل ، فسيأخذونني من جديد الى مكان ما ، ساقى طائراً في العاصفة
على هذا النحو . أنا وحيد والمرضى بالآلاف . وهكذا ساصل بالتهاب
الرئتين ، وقد أموت هنا . وبينما كنت أشكو نفسي النفسي ضمت في
العملة دون أن أدري كم من الوقت قضيت فيها . لم أجد نفسي في
اية حمامات ، ولم أجد إلا البرد الذي قرصني والذي أخذ يشتد ويشد .

وعندما فتحت عيني رأيت ظهراً أسود ، ومن ثم فهمت أننا لا نمشي
بل نقف .

.. سألت وأنا أحرق بعيني المتعبتين :

— هل وصلنا ؟

تحرك الحوذي الأسود متمللاً ، لم خرج من مزلقته فجأة ،
وتهمياً لي أن الرياح تتجاذبه من كل الجهات ... لم تحدث دون أن
يبدي أي احترام في لهجته :

— وصلنا ... كان علينا أن نسمع أصوات الناس إذا ... آه
يا إلهي ! سنقتل أنفسنا ، وسنقتل الجيل أيضاً .

— وهل ضلنا الطريق ؟ وشعرت — عندها — بالبرد في ظهري .

فاجأني الحوذي بصوت حائق :

— عن أي طريق تتحدث ، كل شيء أمامنا لونه أبيض . طريق ١ :
لقد ضعنا دون جدوى . إننا نمشي منذ أربع ساعات . لكن إلى أين ١٤٠٠ ؟
هذا ما حصل .

أربع ساعات . أخذتُ اتحرك ، اتلمس الساعة ، وأخرجت
الكبريت ، لكن لماذا ١٤ ؟ لم يكن نمة فائدة ترجى منه إذ لم يشتعل أي
عود . تقدح ، فيومض : ثم ما تلبث النار أن تخبو وتنطفئ .

قال رجل الإطفاء بصوت جنائري :

— أقول لك : أربع ساعات ، ماذا سنفعل الآن ؟

— وأين نحن الآن ؟

لقد كان سؤالاً غيبياً إلى حدّ أن الحوذي لم يجد ضرورة للإجابة
عنه ، تلفتُ في مختلف الاتجاهات — وخيل إليّ للحظة أنني لا اتحرك
بل العاصفة هي التي تهزني في المزلجة — ثم خرجت من المزلجة ، ففهمت
على الفور أن الثلج قد وصل إلى مافوق المركب ، وأن كسبان الثلج قد
وصلت إلى بطن الجواد الأخير الذي تدلى لبده كلعرة قليلة الشعر .

— هل أصبحنا وحيدين ؟

— نعم . وحيدين . وخارت قوى الجياد .

وتذكرت بعض القصص ، والسبب ما شعرت بالكره تجاه (ليف
تولستوي) ، فكرت : « كانت حياته هائلة في قرية (يانسنايا بوليانا) ،
إذ لم يأخذه على ما يبدو إلى بيوت الموتى . . . » وشعرت بالإشفاق على
رجل الإطفاء ، كما أنني عانيت أنا نفسي شدة الخوف الموحش ، ولكنني
خنقته في قلبي .

تمتتم بانزعاج :

— هذا تخذل . . . وشمرت بطاقة هائلة تظهر في أعماقي

ثم قلت وأنا لأشعر أن أسناني تتجمد من شدة البرد :

— هذا هو قدرنا يعلم ، لكن لا وقت لدينا للتعبير عن الاكتئاب هنا ،
وإلا فإننا سنهلك فعلاً . لقد توقفت الجياد قليلاً ، ونالت نصيباً من
الراحة ، ويجب علينا أن نتابع المسير . اذهب أنت وقد الجواد الأمامي
من لجأه ، وسوف أوجه أنا البقية من عندي . يجب أن نخرج من هنا
بسرعة قبل أن يطرنا الثلج .

وانطلق الحوذي إلى الأمام — وبدأت أذنا قبعتة شديدي الوضوح —
يتعثر ويتخبط حتى وصل إلى الحصان الأمامي . لقد بدت لي عملية بدء
إقلاعنا طويلة لا تنتهي . كانت العاصفة تصفني بثلجها الجاف . وبها
الحوذي مثل الشبح يتأرجح أمام عيني .

— إوه . آخ . . . تنجح الحوذي .

— هيا . هيا . صرخت وأنا أهر العنان بقوة .

تحركت الجياد ببطء شديد متخبطة في الثلج ، وبدأت
عربات التزلج تهتز كأنها على الأمواج ، وكان الحوذي يكبر
تارة ويصغر أخرى إلى أن تخلص بصعوبة وركض إلى الأمام . تابعنا
تحركنا على هذا التحو ربع ساعة تقريباً ، وفي النهاية شعرت أن المزالج
بدأت تصر بصيراً متوازناً ، وغمرت السعادة قلبي عندما أصبحت أرى
حوافر الجواد الخلفي تتناوب في الظهور .

صحت :

— الثلج قليل هنا ، يبدو أنها الطريق .

— نعم نعم . اجابني الحوذي عائداً بصعوبة نحوي وقد كبر فجأة ،
ثم ردد بصوت حاد ومنقطع من شدة الفرح :

— يبدو انها الطريق . إن شاء الله لن نفوس ثانية ، ولن نضعها .
— إن شاء الله .

عاد كل منا إلى مكانه ، وانفذت الجياد بنشاط ، وخيّل إليّ
ان العاصفة قد هدأت حتى أصبحت ضعيفة ، وانها خفت فوق
رؤوسنا ، ولم يبق على جبيننا سوى الثلج الكدر . ولم أعد أتمنى أن
نصل إلى المشفى دون سواها ، بل أن نصل إلى أي مكان مأهول لآبد أن
تؤدي إليه الطريق .

أسرعت الجياد فجأة ، وأخذت تقفز بحيوية ، ففرحت فرحاً
مبهماً ، ثم سألت :

— هل شعرت الجياد بوجود مكان مأهول ؟

الم يجيبني الحوذي ، فرفعت جسدي من المزلجة وتفحصت ماحولي .
ثم تنهأت إلى سمعي صوت غريب حزين ومتوحش انبعث فجأة من مكان
ما في العتمة ، ثم اختفى . فسألت حالي دون أن أعرف السبب ، وتذكرت
كيف اشتكى المحاسب وهو يضع رأسه على يديه . وفجأة لاحظت على
الجانب نقطة معتمة ما لبثت أن كبرت حتى غدت قطعة سوداء ، ثم
كبرت وكبرت وأخذت تقترب ، فالتفت رجل الإطفاء نحوي ، فرأيت
كيف قفزت أسنانه الاصطناعية من مكانها . وسأل :

— هل رأيت أربها الدكتور المحترم ؟

انعطف أحد الجياد نحو اليمين ، والآخر نحو اليسار ، وتلوه رجل
الإطفاء ثقية ، وجرثم على ركبتيه ، ثم اعتدل وأخذ يهر العنان بسدة ،
فصهلت الجياد وانذفعت اندفاعاً متعرجاً مهتزاً، تقذف كتل الثلج وراءها .

ارتعشت عدة مرات ، لكنني تماكنت نفسي وأخرجت جسدي من
عقب المزوجة وتناولت مسدس البراونينغ وأنا ألعن نفسي لأنني نسيت
مخزن الطلقات الاحتياطي في البيت . « لا ، إذا كنت غير راغب في البقاء
والنوم ، فلماذا لم أحمل معي مشعلا ١٩ » وتخيلت خبرا صغيرا في الحديقة
عن نفسي ، وعن رجل الاطفاء تعس الحظ .

كبرت القطعة فأصبحت كلبا ، واخذت تتمشى بالقرب من المزالج ،
والفتتُ فرائيتُ مخلوقا ثانياً بأربع قوائم قريباً جداً خلف المزالج .
استطيع أن أحلف أن هذا المخلوق كان ذا أذنين حادتين ، وأنه كان يمشي
خلفنا بهدوء كما لو أنه يمشي على الباركيه ، وقد تبدت من مشيته
سمات وحشية رهيبة .

« أقطع هم أم اثنان فقط ؟ » وعند كلمة « قطع » شعرت وكان
قطراناً قد غمرني تحت المعطف وأن أصابعي لم تعد متجمدة فوق رجلي .
وقلت بصوت ليس لي ، ولم أعده من قبل :

— تماسك جيداً ، واما مسك الجياد ، اما أنا فساأطلق النار الآن .

أجلب الحودي بآه فقط ، ثم خبأ رأسه بين كتفيه .

لمت الطلقة أمام عيني ، وصمّ دويها أذني ، ثم أطلقت ثانية
وثالثة ... ولا أذكر كم دقيقة هزني الطلقات في قاع المزوجة .

سمعت صهيل الجياد المتوحش ؛ فضغطت على زناد البراونينغ ،
فاصطدم رأسي بشيء ما ، فحاولت أن أخرج من المزوجة بفتة ، وفكرت
برعب شديد بأن جسداً ضخماً مخيفاً قد تشبث بصدري وتخيلت منظر
أحشائي المزقة . وفي تلك اللحظة صلح الحودي :

— ها ... هوذا هناك ، ها هوذا ... يا إلهي اطرده ...

واستطعت في نهاية الامر ان اسوي أمري مع فروتي الثقيلة ،
وأحرر يديّ منها . ورفعت رأسي فلم أرَ حيوانات سوداً مفترسة لا من
الخلف ولا من الجوانب . وهبت العاصفة بلطف وهدوء ، ثم التمع ضوء
شديد الروعة — أعرفه الآن ، وكنت أستطيع تمييزه من بين الآلاف —
إنه ضوء المصباح في مسفاي ، وخلفه انتشرت العتمة ، « ياله من منزل
رائع ! وهل هناك قصور أجمل ؟ » ومن شدة فرحتي أطلقت طلقتين
من البراونينغ نحو الخلف حيث هربت الذئاب .

وقف رجل الإطفاء في منتصف الدرج المؤدي إلى الجزء السفلي من
بيت الطبيب الرائع ، ووقفت أنا في أعلاه ، وبقيت أكسينيا التي ترتدي
معطفها المصنوع من فرو الضأن في الأسفل . قال الحوذي :

— مهما أعطيتوني من ذهب فلن أذهب ثانية . . . ، ولم يتمّ عبارته ،
وشرب كأساً من الكحول دفعة واحدة ، تنحنح بعدها نحنحة مخيفة ،
ثم التفت إلى أكسينيا وأضاف وهو يمسك يديه ما مكنته طبيعة بنيته :

— يا لها من ذئاب ضخمة !

وسالتني أكسينيا :

— هل ماتت ؟ ألم تنقلوها ؟

فأجبت دون اكتراث :

— لقد ماتت .

بعد ربع ساعة هذا كل شيء في رأسي ، وأطفئ النور في الأسفل ،
وأصبحت وحيداً في الطابق العلوي . ولسبب ما ضحكت ضحكاً
متشنجاً ، ثم حلت أضرار البلوز ، وعدت فزرتها ثانية ، ومشيت نحو

رفوف المكتبة وتناولت مجلد الجراحة ، أردت أن أعرف شيئاً ما من
كسور الجمجمة . لكنني طرحت المجلد جانباً وصرخت بصوت مدوّ :

— مهما أعطيتموني ... لكن بعد الآن لن أذ .. ه .. ب .

وصفرت العاصفة هازئة ... ستذهب ... هه ستذهب ...

ومرت الرياح ، فأصدرت فوق السطح أصواتاً كالرعد ، ثم صفرت
عبر المزاليب ، وخرجت منها ، ثم خشخشست على الشباك ، ثم ابتعدت ،
ودقت عتلوب الساعة ، ستذهب ... ستذ ... هب ...

ثم هدأت وهذات .

ثم لا شيء . هدوء . نوم ...



العتمة المصرية

أين العالم كله في يوم عيد ميلادي ؟ أين مصابيح موسكو الكهربائية ؟
أين الناس ، السماء ؟ ليس نعمة شيء خلف النوافذ سوى العتمة !!

نحن مفصولون عن الناس تملأ ، إذ تبعد أقرب المصابيح الكازية
التي تقع عند محطة السكك الحديدية تسعة فراسخ عنا . ربما يتلأأ
هناك مصباح كهربائي تخنقه الزوبعة ؛ ويمرّ من هناك في منتصف الليل
القطار اللهاب الى موسكو هادراً ، دونما حاجة للتوقف في هذه المحطة
المنسية والمدفونة في قلب العاصفة ؛ لا بد أنه يحمل شيئاً ما في طريقه .

أما أقرب مصباح كهربائي فيقع في مركز القضاء على بعد أربعين
فرسخاً منا . هناك الحياة حلوة ، إذ يوجد كثير من المحال التجارية ،
ودار للسينما ... وفي الوقت الذي تعوي فيه العاصفة ويفمر الشلج
الأرض ، يمكننا أن نرى على الشاشة كيف يسبح القصب ، وتتمايل
أشجار النخيل وتتلأأ الجزر الاستوائية .

نحن هنا وحيدون.

قال مساعد ديبيان لوكيتش وهو يرفع الستارة :

— عتمة مصرية .

إنه يعبر عادة بأسلوب مهيب وشديد الإحكام ، فالعتمة مصرية
ولا يجوز أن تكون غير ذلك . ودعوتهم :

مذكرات طبيب مـهـ

— ٦٥ —

— أرجوكم ان تشربوا قدحاً آخر . (آه ، أرجو ألا تستنكروا
فالطبيب ومساعدته والقابلتان بنشر أيضاً . نحن لا نرى لأشهر كاملة
أحداً غير مئات المرضى ، إننا نعمل في الثلج ، وندفن فيه . اليس من
حقنا ان نشرب قدحين من الكحول الممزوج بالماء حسب الوصفة . وان
ناكل سمك الإسبرط في عيد ميلاد الطبيب !) .

قال ديميان لوكيتس على نحو مؤثر :

— بصحتك يا دكتور .

وقالت آنا نيكولايفنا وهي ترفع كأسها ، وتسوي ثوبها الاحتفالي
الموشى :

— نتمنى لك ان تعتاد الحياة عندنا .

رفعت القابلة الثانية بيلاحيا إيفانوفنا — التي أفرطت في الشرب —
قدحها ، ثم جلست القرفصاء لتحرك نار الموقد بالمسعر . . . فظهرت
آثار الحرارة في وجوهنا . . . وأحسنا بالدفع يفمر صدورنا بفعل
الفودكا .

قلت بانفعال شديد ، وأنا احدث في سحبات الشرار المتطاير بجانب
الموقد :

— إنني لا أفهم أبداً ما فعلته المرأة بدواء البيلادونا(*) . إنها مصيبة
حقيقية .

لمبت الابتسامات على وجوه المسامد والمرضتين .

(*) البيلادونا : نبتة ست الحسن . يستحضر منها بعض المستحضرات الطبية .

جوهر القصة أن امرأة متوردة الخدين في الثلاثين من عمرها تقريباً
جاءتني الى العيادة في فترة الدوام الصباحية ... استندت على كرسي
مساعدي الموضوع خلف ظهري ، ثم اخرجت من مبتها زجاجة صغيرة
مريضة مدورة ، وقالت متملقة :

— شكراً لك ايها الدكتور على الشراب ، فقد ساعدني كثيراً ...
هلا تكرمت عليّ بزجاجة أخرى .

أخذت الزجاجة من يدها ونظرت في الورقة الملصقة عليها ، فأصبح
كل شيء أخضر في عيني . كان قد كتب على الورقة بخط ديميان
لو كيتش :

« شراب البيلادونا ... » الخ ... « ١٦ » ، كانون الأول ،
عام ١٩١٧ » .

وبكلمات أخرى : البارحة فقط أعطيت هذه المرأة كمية لا بأس بها
من البيلادونا ، واليوم السابع عشر من كانون الأول ، في عيد ميلادي ،
جاءت هذه المرأة بالزجاجة فارغة تطلب المزيد .

سألتها بصوت متوهش :

— هل تنلوت البارحة ؟

— نعم . كله ، يا سيدي المحترم ، كله . ليعطك الله الصحة لقاء
هذا الشراب . شربت نصف الزجاجة عندما وصلت ، والنصف الثاني
عندما أردت النوم .

وما إن رفعت يديها عن كرسيّ مساعدي حتى استندت أنا عليه ،
وقلت بصوت مخنوق :

— كم نقطة قلت لك ؟ لقد قلت لك خمس نقاط ... ماذا فعلت
يا امرأة ؟ إنك ... إنني ...

— والله لقد تناولته . هكذا قالت وهي تظنّ أنني لا أنق بها ، ولا أثق
أنها تناولته .

امسكت بيديّ خديها اللوردين ، وحدثت في بؤبؤي عينيها ، لكن
البؤبؤين كانا طبيعيين . كانا جميلين إلى حدٍ كبير وعاديين تماماً . وكان
نفضها جيداً ، ولم لاحظ عموماً ، أية أعراض للتسمم بالبيلادونا عند
هذه الحرمة .

قلت :

— هذا غير ممكن . تم ناديت ديميان لوكيتش ، فظهر بفتة قادمة
بردائه الأبيض من الممر المؤدي إلى الصيدلية .

— انظر يا ديميان لوكيتش من فضلك ، انظر ماذا فعلت هذه
الحسنة ، إنني لا أفهم شيئاً ...

أدارت الحرمة رأسها بخوف ، وقد فهمت أنها ارتكبت حماقة ما .

تناول ديميان لوكيتش الزجاجاة وشمها ، ثم أدارها في يده وقال
حازماً :

— أنت يا عزيزتي تكذبين ، أنت لم تتناولي الدواء .

— والله ، والله ...، أخذت المرأة تقسم .

قال ديميان لوكيتش وقد أوى فمه غاضباً :

— لا تحاولي ذرّ الرماد في العيون . إننا نعرف كل شيء معرفة
تامة . امترفي ، هيا ! من عالجت بهذا الشراب ؟

نقلت الحرمة بؤيؤها العادين النظر في السقف المكلس التنظيف ،
ورسمت علامة الصليب .

— هذا ما ...

قاطعها ديميان لوكينش قائلا :

— كفي كفي ... ثم توجه بحديثه إليّ ... هل تعرف ماذا يفعل
هؤلاء يا دكتور؟! ... تأتي إحدى النساء الكاذبات إلى المشفى فيعطونها
دواء ، فتعود إلى قريتها فتضيف جميع الحريم هناك .

— ماذا أيها المساعد المحترم ...

— اسكتي . تدخل مساعدي ثانية ؛ إنني عندكم هنا للعام الثامن .
ثم تابع موجهاً خطابه إليّ :

لقد قطرت الزجاجة في البيوت كلها بالطبع .

لكن الحرمة عادت ترجوني متملقة :

— اعطني بعضاً من هذا الشراب أرجوك .

فاجبتها وأنا أمسح العرق عن جبينني :

— لا ، لا أيتها الحرمة ، لا ضرورة لداوانك بعد الآن بهذا الشراب ،
الم يبرا بطنك؟

— هه ! ليس تماماً ، وأشارت بيدها !

— هذا شيء رائع ، ساكتب لك على دواء جديد ، إنه دواء جيد
أيضاً .

وكتبت للحرمة على دواء النردين(*) ، فخرجت خائبة .

لقد تحدثنا عن هذه الحادثة في شفتي في يوم عيد ميلادي عندما كانت العتمة المصرية خلف النوافذ كأنها ستارة من الروايع المزعجة .

قال ديميان لوكيتش وهو يمضغ السمك المزيت بتهذيب شديد :

— ما هذا ما هذا .. ؟ لكننا قد ائتمدنا الحياة هنا . وانت يا عزيزي الدكتور ستعتاد ، وستعتاد كثيراً ، إنها غابة .

— آه يا لها من غابة . ردت آتنا نيكولايفنا وكأنها الصدى .

أخذت العاصفة الثلجية تعوي في المداخل ، وخشخشيت ضرباتها على الحائط الخارجي ، وانعكست بقايا الضوء الأرجواني الذي ترسله النار على صفيحة الموقد السوداء .

بوركت النار التي تدفئ الطاقم الطبي في هذه الغابة .

قال مساعدي بعد أن أخذ يدخن ، وقد قدّم لانا نيكولايفنا سيجارة بتهذيب جم :

— هل ترفب بسماع شيء عن سابقك الدكتور ليوبولد لبوبولديفيتش ؟

كان طبيباً رائعاً . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بحماس شديد وهي تنظر بعينها الفانتين في نار الموقد المباركة وقد تلايلات بكلة شعرها الأسود المزينة بأحجار مرصعة .

نم أكد مساعدي :

(*) النردين : دواء مسكن يصنع من جذور نبتة الفاليريانا (Valeriane) .

– نعم إنه رجل عظيم ، وقد أحبه الفلاحون حتى العبادة ، لأنه مرف كيف يكسب ودهم . فكانوا يتمددون لإجراء العمليات عنده بكل سرور ، ويسمونه ليونتي ليونتي فيتش بدلا من ليوبولد ليوبولديتش ، كانوا ينقون به وكان هو يجيد الحديث معهم . اسمع أيضاً هذه الحادثة :

أني واحد من معارفه للمعالجة ، كان اسمه فيودور كوسوي من قرية دولتسوف ، فقال شاكياً : – اشعر يا ليونتي ليونتي فيتش بانقباض في صدري ، لكن ليس إلى حد الاختناق وعدا عن ذلك نمة شيء ما يخنخنس في بلعومي ...

– خذ ليارنيفيت . قلت آلياً إذ اعتدت السرعة بعد شهر من الاستعجال في تشخيص الأمراض الريفية .

– عين الصواب . « إذا سأقدم – قال له ليونتي – لك علاجاً وستبرأ خلال يومين . خذ لصقتي خردل فرنسيتين ! تلصق واحدة على ظهرك بين الكتاف ، والثانية على صدرك ، وبعد أن تلصقهما تنتظر عشر دقائق ثم تنزعهما ... هيا إلى الامام سر » .

أخذ المريض اللصقتين وذهب ، ثم ظهر بعد يومين من جديد في العيادة ..

« ما الامر ؟ » سأله ليونتي . فأجابه كوسوي :

– « ما هذا يا ليونتي ليونتي فيتش ؟ لم تساعدني لصقاتك قط » .

فأجابه ليونتي :

« تكذب ! إذ لا يمكن للصقات الخردل الفرنسية الا تساعد ، يبدو أنك لم تضعهما ! »

أجاب : - « كيف لم أضعهما ؟ إنهما ملصوقتان الآن » وعلى الفور
استدار ليري الطبيب ظهره .

كانت اللسقة ملصوقة على معطفه !...

انفجرت 'مقهقهة' ، وضحكت 'بيلاجيا' إيفانوفنا مستهزئة وضربت
قطعة الحطب بالمسعر بعنف .

فلت : - هذا من اختراعت ، إنها نكتة ، هذا لا يمكن أن يحدث .

-- نكتة ؟! نكتة ؟! صاحت القابلتان معا بصوت عالٍ .

ردّ مساعدي بعنف :

... لا ، لا ، لا ! أعرف ؟ حياتنا هنا هي مجموعة نكات كهذه... الأمور
كلها هكذا هنا .

ثم قالت أنا نيكولايفنا :

... والسكر ! حدثينا عن السكر يا بيلاجيا إيفاننا !

أغلقت بيلاجيا إيفاننا باب الموقد ، وقالت غاضبة طرقها :

... سافرت مرة إلى قرية دولتسوف لتوليد امرأة ...

لم يستطع مساعدي تمالك نفسه فقاطعها وعلق :

... دولتسوف يا له من مكان فائع الصيت . ثم قال أنا آسف تبلمي
يا زميلة .

(*) إيفاننا : اسم التحب من إيفانوفنا .

— لا بأس سأتابع ، — قالت بيلاجيا إيفانا — ثم تابعت : عندما كنت
أفحص الحامل شعرت تحت أصابعي في قناة الولادة بشيء ما غير مفهوم
... شيء هس مرة ، وحاد مرة أخرى ... تبين لي فيما بعد أنه
سسكر أبيض ...

قال ديميان لوكيتش بأسلوبه الاحتفالي :

— يالها من نكتة .

— اعدوني لا أفهم شيئاً .

فسارعت بيلاجيا إيفانا بتقديم الشرح :

— القصة كلها أن الساحرة قالت للحرمة الحامل إن ولادتها عسيرة،
وإن الجنين لا يودّ الخروج إلى ضوء الله ، لذا كان لا بد من إغرائه بشيء
حاو المذاق .

قلت : — هذا شيء رهيب .

فالت أنا نيكولايفنا : — يعطون المرأة الماخض شعراً لتمضغه .

— لماذا ؟

— الشيطان يعرف ذلك . لقد جاؤوا ثلاث مرات بنساء في لحظة
الماخض ، كانت الواحدة تنمدد وتبصق . فمها مملوء بالشعر الخشن .
ثمة عادة تقول إن الولادة تصبح أسير بذلك .

لمعت عيون القابلتين من الذكرى .

جاسنا مطولاً عند الموقد نشرب الشاي ؛ وتابعت الإصفاء نهم
مسحوراً بأحاديثهم ... تحدثوا عن موضوع نقل المرأة الماخض من

القرية إلى المشفى ، وكيف كانت بيلاجيا إيفانوفنا تترك باب عربتها الخلفي مفتوحاً دائماً لتراقب إن كانوا سيعيدون المرأة الحامل لتلد بين يدي القابلة المنسوذة في القرية ، وكيف أنهم في إحدى المرات أرادوا إعادة الجنين إلى وضعه السليم عند امرأة حامل ؛ فعلقوها من رجليها في السقف ! وكيف أن إحدى القابلات الشعبيات في قرية كريفوف سمعت أن الأطباء يقومون بزل كيس الجنين ... فتناولت سكين المطبخ وقطعت رأس الجنين ، حتى إن طبيباً مشهوراً ومحكماً مثل ليبونتي لم يستطع إنقاذه ، واكتفى بإنقاذ الأم والحمد لله ، وكيف ؟ وكيف ...

أطفأنا الموقد منذ فترة ، وذهب الضيوف إلى أجنحتهم ... ولحت الضوء الخافت وهو ينبعث لبعض الوقت من نافذة أنا نيكولايفنا ، ثم ما لبث أن انطفأ . توارى كل شيء عن ناظري . اختلطت الزوبعة الثلجية بالمساء الكاثوني المظلم ، وحجبت السترة السوداء السماء والأرض عني .

أخذت أتمشى في غرفة مكتبي ، فتصرّحت تحت قدمي الأرضية الخشبية كانت الغرفة دافئة بفضل الموقد الهولندي . وكان مسموعاً الصوت الذي يصدره الفأر وهو يقضم بنهم شديد شيئاً ما في إحدى الزوايا .

قلت في نفسي : « سأناضل هذه العتمة المصرية ، سأناضلها بقدر ما يحتفظ بي قدرتي هنا في هذه الغابة . سكر أبيض ... قواوا لي من فضلكم » .

ظهرت في سلسلة أحلامي التي ولدت أمام ضوء المصباح ذي الغطاء المعدني المدينة الجامعية الضخمة ، كان فيها مشفى كبير ، فيه صالة ضخمة ، أرضية مقطعة على شكل مربعات ، صنادير متألثة بيض نظيفة ، طبيب مسلح ذو لحية شائبة مديّة تدل على الحكمة ...

إن قرع الباب في لحظات كهذه يرعج ويخيف دائماً .

أريجفت خوفاً .

— من هناك يا اكسينا ؟! سألت وأنا اتدلى من درابزون الدروج السفلي ... (تتكون سُقة الطبيب من طابقين : في الأعلى غرف النوم والمكتب ، وفي الأسفل غرفة الطعام ، وغرفة أخرى ليس لها وظيفة معروفة والمطبخ الذي تقطن فيه الطباخة اكسينا وزوجها حارس المستشفى الدائم)

صلصل المزلج الثقيل ، ودخل ضوء المصباح يتأرجح في الأسفل ، وهبت ريح باردة .

قالت لي اكسينا :

— وصل مريض

أفرحني الخبر لاحقاً لأن النوم جافاني ، وسبب لي قضم القثران والدكريات بعض الكآبة . إضافة الى ذلك فإن كلمة مريض تعني أنه ليس امرأة ، أي ليس أكبر مصيبة ... ليس ولادة .

— هل يستطيع المشي ؟

— يستطيع . اجابت اكسينا متثابرة .

— إذا دعيه ياتي الى غرفة المكتب .

صر الدروج الختبي مطولا . صعد شخص ضخيم ثقيل الوزن ، وجلست في تلك اللحظة إلى طاولة الكتابة محاولاً ألا تهرب من ملاحق الطبية الاءوام الاربعة والعشرون التي عشتها ، ووضعت يدي الأولى على المسامع كما لو أنها على المسدس .

حشرت هيئة ترتدي فروة من جلد الخرفان ، وتنتعل جزمة شتوية طويلة نفسها في الباب ، وقد حملت الهيئة القبة بيدها .

— لماذا اتيت في وقت متأخر يا صديقي ؟

فأجابت الهيئة بصوت رقيق ولطيف :

— أعذرني أيها الدكتور المحترم ، إنها الزوبعة ، المصيبة الكبرى ،
هي التي أخرتني ، ماذا كلن يمكنني أن أفعل ؟ سامحني من فضلك .

قلت في نفسي وأنا راض نعلما : « انه شخص مهذب » .

لقد أعجبتني الهيئة إعجاباً شديداً ، حتى تلك اللحية الشقراء الكثمة
تركت لدي انطباعاً حسناً . ويبدو أن هذه اللحية قد تمتعت ببعض
العناية إذ إن صاحبها لم يعمد إلى تشذيبها فقط ، بل دهنها بشيء ما ،
لا يصعب على الطبيب الذي عاش وقتاً قليلاً في القرية أن يحدده انه
ریت نباتي .

— ما المشكلة ؟ اخلع فروتك ! من اين أتيت ؟

تموضعت الفروة على الكرسي كجبل .

أجابني المريض وهو يرنو إلي بجزع :

— لقد أميتني الحمى .

— الحمى ؟

— أجل .

— أنت من دولتسوف ؟

— نعم بالضبط ، وأعمل طحافاً .

— حدثني إذا ، كيف تعذبك الحمى ؟

— كل يوم في الساعة الثمانية عشرة يبدأ رأسي يؤلني ، وتبدأ حركاتي
بالارتفاع وتستمر كذلك ساعتين ثم يعود للانخفاض .

« التشخيص جاهز » لمعت فكرة الانتصار في رأسي .

— ألا نسعر بشيء في الساعات الأخرى ؟

— هم ... فك الأضرار ! هم ...

لقد استطاع هذا المريض أن يستحوذ على إعجابي منذ اللحظة الأولى وحتى نهاية الفحص ، فبعد أولئك المعجزة الجاهلات ، والأولاد الخائفين من خافض اللسان المعدني ، وبعد النكتة الصباحية مع السبلادة نا هنئت عينا الفتيتان بالنظر الى هذا الطحان .

كلن حديثه بليفاً ، وبدأ انه متعلم ، حتى إن كل إشارة منه كانت مشبعة بالاحترام للعلم ولا سيما للطب ؛ اي بالاحترام لما أحب .

قلت وأنا أنقر على صدره العريض الدافئ :

— اسمع يا عزيزي أنت مصاب بالمalaria ، الحمى المتقطعة ... يوجد لدي الآن عنبر كامل خال من المرضي ، انصحك أن تبقى عندنا هنا وسوف نراقب صحتك كما يجب . سأبدأ معالجتك بالمساحيق ، وإذا لم تجد نفعا سنجري لك بعض الحقن ولا بد أن ننجح ، ما رأيك ؟ انبقى ؟

اجاب الطحان بلطف شديد :

— اشكرك من كل أعمافي ، كل من سمع بك راض عنك ، يتحدثون عن مساعداتك ... وأنا موافق على الحقن ، المهم أن نتحسن صحتي .

« لا ، هذا والله شعاع مضيء في عتمة هذه القلابة » فكرت بهذا ، وجلست الى الطاولة يملؤني شعور بالرضا ، لكن الذي جاء الى المنفى ليس طحانا غريباً بل أخ حقيقي جاء ليحل ضيفاً عندي .

كتبت على إحدى أوراق الاستمارات .

« مسحوق الكينا . هـ .

أصرف مشر جرعات . ظرف واحد في منتصف الليل

اسم المريض : الطحان خودوف » .

ثم وضعت توقيمي الشجاع .

وكتبت على استمارة أخرى

« بيلاجيا إيفانوفنا :

ضعي الطحان في العنبر الثاني ، إنه مريض بالمalaria ، أعطه ظرفاً
واحداً من الكينا كما هو مفترض قبل أربع ساعات من النوبة أي في
منتصف الليل . أقدم لك حالة استثنائية إنه طحان مثقف » .

وبعد أن تمددت في فراشي تسلمت من أكسينيا المتجهممة والمتثابة
ورقة كتب عليها :

« عزيزي الدكتور

نقل كل شيء . بيلاجيا إيفانوفنا » .

ثم نمت .

..... واستيقظت .

أخذت أصرخ :

— ماذا بك ؟ ماذا ؟ ما الأمر يا أكسينيا ؟

وقفت أكسينا خجلة تغطي الأرض السوداء بتنورها ذات البقع
البيض ، وقد أضاء نور الشمعة الاستياريونية(*) المهتز وجهها النعيس
والقلق .

— جاءت ماريا الآن . وهي تقول إن بيلاجيا إيفانا أمرتها أن ترجوله
الحضور حالا .

— ما الأمر ؟

— تقول إن الطحان في العنبر الثاني يموت .

— ماذا ؟ يموت ؟ كيف ؟ كيف يمكن أن يموت ؟

شعرت قدماي الحافيتان ببرودة الأرض فورا إذ أخطأتا الحذاء .
كسرت حود ثقاب وعرزته مطولا بفتيلة المصباح حتى اشتعلت فأعطت
نارا مائلة الى الزرته . كانت الساعة السادسة تماما .

« ماذا عسى أن يكون الأمر ؟ ماذا ؟ أمن الممكن ألا تكون الماريا ؟
ميم يعاني إذا ؟ نبضه ممتاز ... »

وخلال ما لا يزيد على خمس دقائق ، خرجت أقفز عبر الفناء المعتم
تماما بجواربي التي لبستها بالقلوب ، وجاكتي غير المزور ، وشعري
الاشعث ، وجزمتي الشتوية ... ودخلت الى العنبر الثاني راكضا .

كان الطحان يجلس على فراشه ، والى جانبه شرف مجعد ،
يردتي لباس الشفى ، ويضيء له مصباح كان صغير . كانت لحيته الشقراء
مشعنة ، وبدت عيناه سوداوين كبيرتين ؛ كان يهتز مثل السكران ،
وينظر حوله برعب شديد ، ويتنفس بصعوبة ...

(*) الاستياريون : مادة يصنع منها الشمع .

نظرت، المعرّضة ماريا ، فافرة فاهها ، في وجهه القرمزي الغامق . . .
تحركت بيلاجيا إيفانوفنا للقائي دون غطاء رأسها المعهود ، وبثوب
ارتدته على مجل . قالت :

— أقسم يا دكتور أنني لست مخطئة . من كان يمكنه أن يتوقع ؟
أنت نفسك أكدت أنه مثقف .

— لكن ، ما الأمر ؟

ضربت بيلاجيا إيفانوفنا كفاً بكف وقالت :

— تخيل يا دكتور لقد ابتلع ظروف الكينا العشرة كلها مرة واحدة
عند منتصف الليل .



كان الفجر شتوياً معتماً . نظف ديميان لوكيتش الأنبوبة المعوية ،
وانتشرت رائحة زيت الكافور، وملأ الطست الموضوع على الأرض بسائل
بني داكن ، تمدد الطحان شاحباً مضى مغطى بالشرشف حتى ذقنه ،
وظهرت لحيته الشقراء شعناء فوق الشرف . انحنت لأفحص النبض،
وتأكدت أن الطحان قد تجاوز محنته بسلام .

سألته : — كيف الحال ؟

أجاب الطحان بصوت خفيض :

— أوه ، آخ ، أشعر بالعمة المصرية في عيني .

فعقبت غاضباً :

— وأنا أيضاً أشعر بذلك ...

— ماذا ؟ قال الطحان . (كان لما يزل يسمع على نحره شيء) . لذا
صحت في أذنه بشدة :

— اشرح لي مسألة واحدة فقط يا هم . لماذا فعلت ذلك ؟

فاجاب بصوت حزين وبنفور :

— قلت في نفسي لم التباطؤ في العلاج ، ولماذا أتناول الظروف واحداً
بعد الآخر ؟ لذا تناولتها كلها دفعة واحدة وانتهى الأمر .

— ياله من شيء مذهل . صحت بصوت مرتفع .

فعلق مساعدتي الوسنان ساخراً :

— نكتة !.



« لكن لا ... لا بد ان أكافح ... لا بد .. سأ ... » .

وبعد ليلة شاقة غرقت في حلم لذيذ ، تمددت غشوة العتمة
المصرية ... وكأنني فيها ... ليس معي سيف ولا سماعة طبية ...
أمشي ... أكافح ... في الغابة لكنني لست وحيداً بل يمشي معي
جيش : ديميان لوكيتش ، وآتا نيكولايفنا ، ويلاجيا إيفانوفنا ، يمشي
الجميع بأرديتهم البيض ... الجميع الى الامام ...

حلم — نكتة طريفة ..



ملذرات طبيب هــ

— ٨١ —

الطفح النجمي

إنه هو ! هكذا أوجت إليّ عزيزتي . إذ لا يمكن أن اعتمد على معلمي ، فهي غير موجودة بالطبع ، لأنني طبيب مستجد تخرجت من الجامعة منذ ستة أشهر فقط . ختبت أن المس الرجل من كتفه العاري الدافئ (مع أنه ليس ثمة ما يخشى) واكتفيت بأن قلت له آمراً :

— هيا يا عم ، أريني ، اقترب من الضوء !

تحرك الرجل كما أردت تماماً ، فغمر ضوء المصباح الكازي جلده المائل إلى الصفرة . كان الطفح الجلدي الرمري بادياً فوق اصفرار صدره البارز وعلى جنبه . قلت في نفسي « ههنا الطفح كالنجوم في السماء » ، انحنيت بقلب بارد نحو صدره ، ثم حولت عيني عن صدره إلى وجهه . كان وجهه أبيض يومئ إلى أربعين سنة وإلى مثل هذا توميء لحينه اللبدة الوسخة ذات اللون الأشهب ، وعينه الجريئتان المغطاقتان بانتفاخت مزمنة . لقد قرأت في هالين المينين — ويا لدهشتي الشديدة — أهمية معرفة عزة النفس .

رف جفنا الرجل ، ونظر حوله متمللاً ، وبدون تكرات ، ثم أصلح حزام بنطاله . « إنه هو — السفلس » قلت في نفسي للمرة الثانية جازماً . إنها المرة الأولى في حياتي الطبية التي أصادف فيها هذا المرض . فانا طبيب رमित من مفاصل الدراسة فوراً إلى هذا الريف الثاني في بداية أيام الثورة .

التقيت بهلا السفسلس بمحض الصدفة ، فقد جاءني هذا الشخص
يشكو من صعوبة في بلع الطعام . ودون رمي أو تفكير في السفسلس إطلاقاً
طلبت منه أن ينزع ثيابه ، وعندما فعل رأيت هذه الانتفاخات التي تشبه
النجوم .

ربطت بين بحة المريض ؛ وحمرة حلقه الملونة بالشووم بسبب تلك
البقع البيض الغريبة التي تغالطها ؛ والصدر المرمرى ، فأصبت .

مسحت يدي قبل كل شيء بكرة السليماني وتفحصت هلي
خيالي لدقيقة كاملة فكرة أنني « أعتقد أنه سعل على يدي » . ومن
ثم قلبت يدي ، بعجز وتأفف ، الملوك الزجاجي الذي استطعت بفضل
أن أفحص حنجرة المريض . أين يمكنني أن أضعه ؟ قررت أن أضعه على
حافة النافذة ، على قطعة من الشاش .

قلت :

— هكبله إذا . أتري ؟ هم ، على ما يبدو بل أعتقد أنت
مصاب ، أتري ، بمرض ملعون — السفسلس

قلت هذا مرتبكا ، ونهيت لي أن أأرجل سوف يخاف خوفاً شديداً ،
وسيفضب لكنه لم يخف البتة ، ولم يفضب .

نظر إلي بطرف عينه ، كما تنظر الدجاجة عندما تسمع صوتاً
يناديه . واستغربت عندما لمحت في عينيه اللورتين أنه لا يثق بي .

قلت بلطف :

— أنت مريض بالسفسلس . .

— وما هذا السفسلس : سأل الرجل ذو الطفحات المرمرية .

عند ذلك تراءى أمام عيني بوضوح شديد طرف العنبر الأبيض كالثلج في المشفى الجمعي ، وتراءى الممرج بما فيه من رؤوس الطلاب المكدسة ، واللحية البيضاء للبرفيسور المختص بالأمراض الزهرية ... لكنني عدت إلى رشدي بسرعة لأجد أنني أبعد عن ذلك المدرج الضام وخمسمة فرسخاً ، وأبعد عن أقرب محطة للسكك الحديدية أربعين فرسخاً وأعيش هنا في ضوء هذا المصباح الكلازي .

كانت أعداد غفيرة من المرضى تلفظ بصوت منخفض خلف الباب وهي تنتظر دورها وكانت ندف أول ثلوج الشتاء تتساقط وقد بدأ الظلام يمد أجنحته راوياً راوياً .

طلبت من المريض أن يتابع نزع ثيابه ... حتى وجدت القرحة الأولى التي اندملت ، ففادرتني بذلك شكوكي الأخيرة ، وغمرني الشعور بالاعتزاز ، وهو شعور يرافقني في كل مرة أصل فيها إلى التشخيص الصحيح .

قلت :

— زير ! أنت مصاب بالسفلس ! إنه مرض شديد الخطورة وسينتشر في الجسم كله ، يجب عليك أن تتعالج الوقت طويل .

هندها تلغمت الأثني — قسماً — قرات في نظراته التي تشبه نظرة الدجاجة استغراباً مختلطاً باستهزاء واضح .

قال المريض :

— حلقي يؤلني .

— بالطبع ، يؤلك بسبب السفلس ، وبسببه أيضاً هذه الطفحات على الصدر . انظر إلى صدرك ...

نظر الرجل شزراً ، ثم حدق دون ان تنطقى نلر السخرية في عينيه
وقال :

— آه لو أنك تعالج لي حلقى .

فكرت وقد نفذ صبري بعض الشيء « كل يغني على ليلاه ، أحدثه
من السفسل ويحدثني عن الحلق » .

تابعت حديثي بصوت عال :

— اسمع يا عم ! حلقك أمر تلافوي ، نستطيع معالجته ، لكن الشيء
المهم هو ان تشفى من المرض العام والاساسي ، وهذا يتطلب علاجاً طويلاً
.. علمين .

عندها حلق المريض في وجهي وقرأت في عينيه حكمه علي « ملذا
يادكتور هل جنت ؟ » .

— لماذا هذه المدة الطويلة كلها ؟ كيف يمكن ان اعالج سننتين ؟! اعطني
من فضلك أي دواء للفرغرة كي يشفى حلقى .

اشتعل كل شيء في داخلي ، واخذت أتحدث بوضوح لأنني لم أهد
أخشى أن أخفيه بل على العكس، قلت له إنه يمكن أن يفقد أنفه، ثم تحدثت
عما يمكن أن ينتظره في المستقبل في حال إهماله العلاج كما يجب ،
وتطرق كذلك إلى موضوع علوى السفسل ، وتحدثت مطولاً عن
الصحون والملاحق ، والأكواب ، والمنشفة الخاصة به .. ثم سأله :

— هل انت متزوج ؟

فأجاب المريض بدهشة :

— نعم متزوج .

فقلت وأنا أشعر باهتياج وغضب :

— إذا أرسل زوجتك إلي فوراً ، إذ يمكن أن تكون هي الأخرى مريضة .

— زوجتي ١٩ سألني المريض وحدث في وقد دهش دهشة شديدة . . . وهكذا تابعنا الحوار ، هو يحدث في عيني بجنتين مرتخيتين ، وأنا أسلق فيه ، بل الأصح أن هذا لم يكن حواراً بين اثنين ، بل هو حوارى الداخلي ، حوار رائع . كان يمكن لأي بروفيسور أن يضع لي الدرجة خمساً في العام الدراسي الأخير . لقد اكتشفت في نفسي معارف هائلة في علم الأمراض الزهرية ، وبذلك فائق ملأت الفراغات المتروكة في تلك الأماكن التي لم تكف أسطر الكتب الجامعية الألمانية والروسية لها . لقد تحدثت عن المضاعفات التي يمكن أن تحدث للمريض إذا لم يتعالج والثناء ذلك أكدت على مرض الفالج الذي يأتي في وقت لاحق . لكن ، ماذا بشأن الأولاد وكيف يمكن إنقاذ الزوجة إذا ما كانت العدوى قد أصابتها ١٩ بل هي أصيبت على الأغلب . كيف يمكن معالجتها ؟

في النهاية ، نفذ سيل أفكاري ، وأخرجت بحركة خجلة من جيبني الدليل الطبي ذا الجلدة الحمراء والأحرف الذهبية ، إنه صديقي المخلص الذي لم أأخل منه منذ خطواتي الأولى في طريقي الصعبة ، فقد أنقذني مرات كثيرة عندما كان يتعلم عليّ تماماً معرفة الصفات الطبية الضرورية . وبينما كان المريض يرتدي ملابسه قلبت الصفحات خلسة ووجدت ما أحتاجه إليه . مرهم الزئبق — إنه وسيلة ناجحة .

— سوف تدهن جسمك بالمرهم ، سأعطيك ستة من ظروف هذا المرهم وسوف تستعمل كل يوم ظرفاً كاملاً . . . هكذا . . . وأريته بحماس ووضوح كيف يجب أن يدهن ، مثلاً أمامه عملية الدلك على ثوبي براحتي الفاخرة .

— اليوم تدهن يديك ، وغداً قدميك ، فيما بعد يديك ... وهكذا
دواليك إلى أن تنتهي من المرات الست ، عندها تستحم وتأتي إلى هنا .
بكل تأكيد أسمع ؟ بكل تأكيد ! نعم ! كما أنه عليك أن تهتم كثيراً بأسنانك
بل بفمك عموماً ما دمت تتعالج وسأعطيك شراباً للفرغرة كي تتفرغ بعد
الطعام ، حتماً ...

— ماذا عن حلقي ؟ سأل المريض بصوت أبح . وجندها لاحظت أن
المريض قد انتعش عند كلمة غرفة فقط .
— نعم نعم الحلق .

بعد عدة دقائق خرجت قروة الخرفان من أمام عيني واتجهت نحو
الباب فانحشر للقائها رأس نسائي يهم بالدخول ...

بعد بضع دقائق خرجت من غرفة العيادة نصف المعتم المؤدي إلى
الصيدلية كي أحضر السجائر فسمعت صوتاً مبجوحاً يقول :

— إن علاجه سيء . إنه شاب . اتعرف أنا مريض في حلقي
وهو يفحص ويفحص مرة الصدر وأخرى البطن ما أكثر المرضى هنا ،
وها هو يمضي نصف النهار يفحص مريضاً واحداً ... أترى بعد قليل
سيحل الظلام . آه يا إلهي حلقي يؤلمني وهو يصف لي مرهماً للأرجل !

وأكد كلامهما صوت نسائي متلعثم بعض الشيء :

— إنه غير مكترث ، غير مكترث . ثم اختفى الصوت فجأة .

كنت أمر بسرعة مرتدياً ثوبي الأبيض ... لكنني لم أحتمل
فنظرت ، وعرفت — على الرغم من نصف العتمة — اللحية التي تشبه
الليف الخشن ، والجفنين المتورمين ، وعيني الدجاجة . وعرفت الصوت
المبجوح الرعب . أدخلت رأسي بين كتفي ، وجمعت بدهاء نفسي داخل

ثوبي فاخفيت . لقد كنت مخطئاً وشعرت بألم يوبخني في ضميري . كان الامر مزعجاً تماماً .

أيمكن ان يذهب كل هذا سدى ... ١٩

... لا يمكن إطلاقاً ! امضيت شهراً كاملاً وأنا أنظر بانتباه رجلاً
الامن كل يوم صباحاً في سجل المرضى ، منتظراً ان التقى بكنية زوجة
المستمع المنتبه لحواري الداخلي عن السفلس ؛ شهراً كاملاً انتظرت
الرجل أيضاً ، لكن احداً لم يأت . وبعد شهر انطلقا في ذاكرتي ولم يعد
يقلقني وأصبح منسياً .

... لأن ايلما وايلما تمر ، ولأن كل يوم جديد من أيام عملي في
هذه الغابة المنسية كان يحمل لي حوادث عجيبة وأشياء محيرة تجبرني
ان انهك دماغي ، تهت مئات المرات ... لكنني ما إن أتت حتى أشهد
همتي من جديد وأبعث ألمي في هذا الكفاح .

الآن ، بعد ان مضت سنوات كثيرة ؛ وبعيداً عن تلك المشفى ذات
الطلاء الأبيض المتقشر ... التذكر الطفق الذي يشبه النجوم على صدره .
أين هو ؟ ماذا يفعل ؟ ... أعرف ، أعرف ، إذا كان حياً حتى الآن فإنه
يسافر هو وزوجته من حين لآخر إلى المشفى القديمة يشكوان من تقرح
في الأرجل . واتصور تصوراً واضحاً كيف ينزع ثيابه ويستجدي المعطف .
والطبيب الشاب ، رجلاً كان أو امرأة في ثوبه الأبيض الرقيق ينحني نحو
رجلي المريض ويضغط بإصبعه العظم فوق التقرح باحثاً عن السبب .
يجد السبب ويكتب في طبلة المريض ، (السفلس في مرحلته الثالثة) ومن
ثم يسأل عما إذا كانوا أعطوه مرهماً أسود للعلاج .

وهكذا عندما أتذكره ، يتذكرني أيضاً ، هذا هو العام السابع عشر ،
ثمة نلج خلف النافذة ، وستة ظروف مغلفة بورق من النايلون ، ست
لغافلت لزجة غير مستعملة ...

- كيف لا ، كيف لا ، لقد وصف لي ... سيقول ، ويصدق لكن
دون سخرية هذه المرة ، بل بقلق أسود في العينين .

أما الطبيب فسيصف له يود البوتاسيوم ، ومن المحتمل أن يصف
له وصفاً أخرى .

ومن المحتمل أيضاً أن ينظر نظرة خاطفة في الدليل الطبي كما كنت
أفعل ... سلاماً يا رفيق !

* * *

« بالنسبة ، يا زوجتي الغالية ، أبلغني بحياتي القلبية للم
سفرون إيفانوفيتش وعداً عن ذلك يا أمراي العزيزة ، أذهبي إلى
دكتورنا ، وأره نفسك ، إذ إنني منذ ستة أشهر مصاب بمرض بشع هو
السفلس . وعندما كنت عندك في العيلة لم أكتشفك بهذا . تعالجي .

زوجك ، إن . بوكوف » .

عشت المرأة الشابة بأسنانها على طرف منديلها الصوفي ، وجلست
على المقعد الطويل تجهش بأكية ، وقد تدلت على جبينها خصل شعر
أشقر مبلل بثلج ذائب .

قالت بصوت مرتفع :

- أليس سافلاً ؟ ... ؟

- نعم سافل . أجبت بحزم ،

بعد ذلك خان وقت ، هو أكثر صعوبة ، وأشد تعذيباً ، إذ كان
عليّ أن أطمئنها . لكن كيف لي أن أفعل ذلك ؟ تحادثنا طويلاً تحت
ضجيج أصوات المنتظرين في المرالدين لم يعودوا يطبقون صبراً ...

بحث هنالك في أعماق زوجي التي لم تمت بعد تجاه العذابات الإنسانية ، عن كلمات دافئة ... حاولت قبل كل شيء أن أقضي على شعور الخوف لديها ... وأشارت إلى أننا لا نعرف شيئاً على وجه الدقة بعد ، وإننا لا يجوز أن نخلد لليأس قبل المفاجعة في معالجة هذا المرض اللعين - السفلس .

- إنه سافل سافل . نشجت المرأة الشابة وغرقت في دموعها .

فمقبت :

- نعم ! إنه سافل .

وهكذا شتمنا لمدة طويلة بكلمات نابية « الزوج العزيز » الذي جاء إلى بيته زيارة ثم رحل إلى موسكو . وفي النهاية جف وجه المرأة من الدموع ولم يبق إلا البقع فقط ، وتحرك جفناها بصعوبة فوق عينيها السوداوين اليائستين . قالت بصوت معذب متألم :

- ماذا سافعل ؟ عندي طفلان .

قلت :

- اصبري ! اصبري قليلاً سيصبح واضحاً ماذا ستفعلين .

طلبت القابلة بيلاجيا إيفانوفنا ، واختلينا ثلاثتنا في عنبر مستقل توجد فيه طاولة لفحص النساء .

آه ياله من وغد ، آه ، وغد . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بقرق وبصوت مبجوح . التزمت المرأة الصمت ، كانت عيناها كحفرتين سوداوين تحديقان عبر النافذة في الشفق ..

كان ههنا الفحص واحداً من أكثر الفحوصات التي شددت فيها
انتباهي شداً كبيراً في حياتي . لم نترك أنا وبيلاجيا إيفانوفنا ، خلية
واحدة في جسدها إلا فحصناها ولم نعث في أي مكان على أي شيء يثير
الشكوك .

قلت وأنا أتمنى بلهفة ألا تخلفني آمالي ، وألا تظهر القرحة الأولى
المربعة ملتئمة في أي مكان :

— الترين ؟ كفي عن القلق ! ثمة أمل . أمل كبير . صحيح أنه
يمكن حدوث كل شيء لكن ، الآن تبدين سليمة تماماً .

سألت بصوت أبع :

— لا يوجد ؟ لا ؟ ، وأشرق عينها ، وتوردت وجنتها . لكن ،
ماذا لو حصل فجأة ؟ ؟ ؟

فجأة ؟ ؟ ؟

قلت بصوت خفيض لبيلاجيا إيفانوفنا :

— إنني لا أفهم شيئاً ، وبلاستناد إلى ما قلت يجب أن تكون
معدية ، لكن ، ليس ثمة شيء .

وردت بيلاجيا إيفانوفنا كالصدى :

— نعم ، ليس ثمة شيء .

وتحدثنا بضع دقائق أخرى مع المرأة عن الجوانب العاطفية في
حياتها ، وعن مواهيد مختلفة . . وفي النهاية حصلت المرأة على عقوبة
مني بأن فرضت عليها المجيء إلى المشفى دورياً . ثم نظرت إلى المرأة

فرايت انها مفزقة إلى نصفين ؛ إذ أحياها الأمل ، لكنه لم يلبث أن مات .
بكيت من جديد ثم انسحبت كالظل المعتم ؛ ومنذ تلك اللحظة أصبحت
وكان " سيفاً مسيطراً على رقبتها " ، أخذت تظهر في غرفة العيادة
كل " سبت صامتة " . ضمير وجهها وفتات عظام وجنتيها نتوءاً حاداً
وقارت عينها وأحاط بهما ظل " دلاكين " ، وتدللت شفتها إلى الأسفل ،
من شدة الانشغال فكرها . كانت تجلّ شالها بحركات معتادة ، ثم نخرج
ثلاثتنا إلى العنبر النسائي لنفحصها .

لم نعر على شيء بعد فحوصات الأسابيع الثلاثة الأولى ؛ وبعدها
أخذت تتعافى شيئاً فشيئاً ؛ فانبعثت في عينيها ألح الحياة ، وعادت
إلى وجهها نضرتها ، وذهبت عنه التشنجات . كبر أملنا ، وزال الخطر .

وأخذت في السبت الرابع التحدث بثقة كبيرة ، لأننا قطعنا أكثر
من تسعين بالمئة من الطريق نحو النهاية الناجحة . وقد مرت مدة
الواحد والعشرين يوماً الأولى المعروفة ، ولم يبق إلا المفاجآت التي
يمكن أن تحصل عندما تظهر القرحة الأولى على نحو متأخر جداً . وانتهت
فيما بعد مراحل المفاجآت والأمل ، ففي آخر زيارة ، رميت المرآة
العاكسة بعد أن فحصت غلجها لآخر مرة وقلت لها :

— تستطيعين الآن تأتي بعد الآن فانت في منأى من أي خطر ،
إن حفظك رائع .

سألتني بصوت لا يمكن أن ينسى :

— الست مريضة بشيء ؟

— لا ، أبداً .

لا تكفيني مقدراتي كي اصف وجهها ، اذكر فقط انها انحنت الى
اسفل حتى خاصرتها ثم اختفت .

غير انها جاءت مرة أخرى تحمل في يديها لفّة فيها رطلان من
الزبدة وعشرون بيضة . وبعد جدال طويل معها لم آخذ الزبدة
والبيضات . وكثيراً ما تفاخرت بهذا الفعل في مرحلة الشباب .
لكن فيما بعد عندما جمعت مراراً في اموام الثورة تذكرت غير مرة مصباح
الكاز والعينين السوداوين وقطعة الزبدة الذهبية التي تسيل من بين
الاصابع .



لماذا أتذكرها الآن يا ترى بعد ان مضت سنون كثيرة جداً ؟ ، ولماذا
أتذكر خوفها الذي فرض عليها اربعة أشهر ؟ فالمرأة تلك كانت المراجع
الثاني الذي شككت بإصابته بهذا المرض الذي بلغت له أفضل أيام
حياتي ، أما الزبون الأول فقد كان ذلك ... صاحب الطفح النجمي
على الصدر .

وهكذا كنت هي الثانية ، وكانت الاستثناء الوحيد ، لقد خافت ،
الوحيدة التي خافت في ذاكرتي التي تحتفظ بضوء مصباح الكاز الذي
كان يضيء عملنا نحن الأربعة : (بيلاجيا إيفانوفنا ، وآنا نيكولايفنا ،
وديميلان لوكيتش ، وأنا) ...

في تلك المرحلة ، عندما كانت تمر ببطء أيام السبت التي تعذبها .
لأنها تنتظر عقوبة الإعدام ، كنت أبحث «منه» في ليالي الجريف الطويلة .

كان الموقد الهولندي يدفئ شقة الدكتور حيث يخيم الهدوء .
« تخيلت أنني الوحيد في العالم الذي يجلس إلى جانب المصباح ... هناك
في مكان ما تسير الحياة بصخب شديد أما هنا عندي فقد كان المطر ينهمر

منحرفاً ليخربش على زجاج النوافذ ... لكنه ما لبث أن تحول إليّ
ثلج صامت ... كنت اجلس سلعت طوال أراجع في سجلاب المرضى
القديمة التي تعود لأعوام خمسة خلت ... وقد مرت أمام عيني آلاف،
بل عشرات آلاف من الأسماء ، وكنت أثمر عليه كثيراً في هذا العدد الهائل
من المرضى . كانت تظهر بين الحين والآخر أسماء أمراض تقليدية مملّة
« التهاب قصبات » ، « التهاب حنجرة » ... وغير ذلك .

آه ، ها هو ذا ... « سفلس في المرحلة الثالثة » وعلى الجانب
كتب بحروف كبيرة وخط معتاد :

« مرهم أسود » ثلاث غرامات .

وتراقصت أمام عيني مرات كثيرة الالتهابات الشعبية ، والنزلات
الصدرية . لكنها تنقطع فجأة ليظهر « السفلس » من جديد .. وكانت
أغلب الملاحظات تشير إلى السفلس في طوره المرضي الثاني ونادراً ما يلاحظ
الطور الثالث . وعندها كن البوتاسيوم اليودي هو الوصفة العلاجية
الأكثر أهمية .

وبقدر ما كنت أتابع المراجعة في مجلدات سجلات أسماء المرضى
المنسية في العلية والتي تفوح منها رائحة العفونة ، كان الوضوح يزداد
في رأسي الغمر . لقد بدأت أفهم أشياء صعبة .

لكن ، أين الإشارات إلى القرحة الأولى ؟ لا يبدو أن ثمة إشارات
قبيح آلاف وآلاف الأسماء قلما تمر ملاحظة تشير إلى القرحة الأولى .
أما المصابون بعدوى السفلس في مرحلته الثانية فهم كثر . ماذا
يعني هذا ؟ هم ... إليكم ما يعنيه ...

— هذا يعني ، قلت لنفسى في العتمة والفقران ظلتهم بقايا الخضار
وتفرض رفوف المكتبة — هذا يعني أن الناس هنا لا يعرفون شيئاً عن

السفلس وإن القرحة الأولى لا تخيف أحداً . نعم ، ومن ثم فإنها تجف وتلتئم ويبقى الندب ... ، وبعد ، ألا يوجد شيء ؟ بالطبع لا ، ثم شيء ، إذ تنفجر المرحلة الثانية الحادة من السفلس ، عندما يلتهب الحلق ، وتظهر في الجسم بثور نازة ، وعندها يذهب سيمون ختوف / ٢٢ سنة / إلى المشفى فيعطونه المرهم الأسود ... نعم !

تتسع محيط الضوء على الطاولة ، واختفت المرأة الشوكولاتية المرسومة في قاع صحن السجائر تحت كومة الألقاب .

— لابد أن أجد هذا ال سيمون ختوف .

خشخشت بين يدي أوراق سجلات المرضى التي أصابها بعض العفن .

١٧ / حزيران / ١٩١٧ استلم سيمون ختوف ستة ظروف من مرهم الزئبق العلاجي المصنع منذ زمن خصيصاً لإنقاذ سيمون ختوف .
إنني متأكد أن الطبيب الذي كان يعمل مكاني هنا قال لسيمون وهو يعطيه المرهم :

— عندما تدهن ست مرات عليك أن تستحم وتأتي إلي من جديد ، أسمع يا سيمون ؟ وبالطبع ، أقسم سيمون ، وشكر الطبيب بصوت أبح ...

نتابع التصفح : بعد حوالي عشرة إلى اثني عشر يوماً يجب أن يظهر سيمون في السجلات ... إذا لتتابع ونر ... نرى ... دخان .. خشخشت الأوراق . آخ ، لا يوجد سيمون ! لا يوجد اسم سيمون بعد عشرة أيام ، ولا بعد عشرين يوماً ... إنه غير موجود نهائياً . آخ يا لسيمون اللباس ، يبدو أن الطقحات الندية أخذت تجف وتنطق على جسمه كما تنطق النجوم عند الفجر ، وسيموت بكل تأكيد ، ... سيموت

سيمون . ومن المحتمل أن أرى سيمون ههنا بقروح المرحلة الثالثة لمرض السفلس عندي في العيادة . هل برئت عظام أنفه ؟ وهل يؤبّاه متمالان ؟
تعس أنت يا سيمون !

لكن ، غير سيمون ، هذا إيفان كاربوف . ولماذا يمرض واحد مثل إيفان كاربوف ؟ نعم ، اسمحو لي ، ولماذا وصف له الكالوميل* مع سكر اللبن بجرعات قليلة ؟ أعرف لماذا إذا ، لأن عمر إيفان كاربوف عامان ! .
وهو مريض بالسفلس في مرحلته الثانية .

قضاء وقدر ! جاؤوا بإيفان كاربوف مغطى بالنجوم ، تحمله أمه بين يديها ، وهو يرفض الاستسلام لأبادي الأطباء التي ننوي الإمساك به كل شيء مفهوم .

— أمرف ، اخمن ، فهمت أين كانت عند الطفل ذي العامين المقرحة الأولى . لقد كانت في فمه ، وقد أصيب بالعدوى بسبب اللعقة .

علميني أينها الغاية ! علمني يا صمت البيت الريفي !

ستتحدث أوراق السجلات القديمة بالكثير الكثير مما يثير الطبيب الشاب . فوق اسم إيفان كاربوف كن اسم :

« أفدوتيا كاربوف ، ٣٠ عاماً » .

من هي ؟ آه ، مفهوم . إنها أم إيفان ، إيفان الذي بكى بين يديها .
وتحت اسم إيفان كاربوف كتب اسم :

« أفدوتيا كاربوف ، ٨ سنوات » .

* الكالوميل : كلوريد الزئبق . دواء مضاد للميكروبات .

وهذه من تكون ؟ اخته ! كالوميل ...

العائلة كلها موجودة . العائلة ينقصها شخص واحد فقط الاب
كاربوف ٣٥ - ٤٠ سنة، لكن اسمه غير معروف . ما اسمه ؟ سيدر
بيوتر ... هذا ليس مهما .

« زوجتي العزيزة ... مرض ملعون ... السفلس » .

هذه هي الوثيقة ، كل شيء واضح في الدهن ؛ وعلى ما يبدو وصل
من الجبهة الملعونة « ولم يكشف سرّه » ومن المحتمل انه لم يعرف هذا
السر كي ييوج به . ثم سافر ، وهنا انتشر المرض ... افدوتيا ... نم
افدوتيا ، ومن افدوتيا إلى إيفان ... وعاء حساء الكرب ، منشقة ...

هاكم اسرة اخرى ، وغيرها ، وغيرها أيضاً . وهاكم هذا العجوز
عمره سبعون عاماً . « السفلس في المرحلة الثانية » عجوز . ما ذنبك ؟
ليس لي ذنب . في الكأس المشتركة . ليس جنسياً ، ليس جنسياً .
كل شيء واضح ، واضح وأبيض مثل فجر تشرين الباكر . معنى ذلك
انني جلست طوال ليلتي وحيداً أراجع الأسماء في سجلات المرضى ،
وأراجع الكتب التعليمية الألمانية الرائعة ذات الرسوم الواضحة .

وثناء سيري إلى عرفة النوم صرخت ، هتفت :

— سأكافح ضده ... سأناضل .

* * *

كي تناضل شيئاً ما لا بد أن تراه . وهو لم يبطيء المجي . ودبت
الحركة على طريق المزالج ، وحدث أن أتى الي للعلاج مئة إنسان في اليوم

كلن النهار يبدأ ايض سديمياً ، وينتهي بظلام دامس عندما نثر
آخر عربات التزلج في طريق عودتها من المشفى .

كان يمر من أمامي وبخبت ، وبصور مختلفة ... إما أن يظهر على شكل قروح مائلة إلى البياض في الخلق عند فتاة مراهقة ، أو على شكل أرجل متقوسة كالسيوف أو على شكل قروح مترهلة تحت الجلد في رجلي عجوز صفراوي . أو على شكل حطاطات نازة على جسد امرأة نضر . وأحياناً يحتل الجبين باعتزاز وكأنه تاج يشبه كوكب الزهرة .

كان في كثير من الأحيان انعكاساً على الأولاد بسبب حياة آبائهم الظالمة آبائهم الذين يحملون أنوفاً تشبه سروج القوزاق .

ومدا من ذلك فقد تسلل خفية دون أن لاحظها . آه ، فقد كنت آتياً من مقاعد الدراسة المتوترة ! ومع ذلك وصلت بعقلي ووجدتي إلى كل شيء . كان يسري هناك في مكان ما ، في العظام ، في المخ ... لقد عرفت الكثير .

— طلبوا مني وقتها أن أدهن جسمي ...

— بالمرهم الأسود ؟

— بالمرهم الأسود ، يا أبتنا ، بالأسود .

— بشكل متصالب ؟ اليوم الأيدي وغداً الأرجل ... ؟

— بالطبع ، لكن كيف عرفت أنت يا سيدي ؟ (متعلّقا) .

« وكيف لا أعرف ؟ آخ . وكيف لا أعرف ، ها هي ذي — المرحلة الثالثة »

— أمرضت بالسفلس ؟

— ماذا تقول ؟ ! ... لم نسمع في عشيرتنا بمرض كهذا !

— هه . . . إذا يؤلك حلقك .

— الحلق ؟ نعم ، آلمني حلقي في العام الماضي .

— هه . . . وهل اعطاك ليونتي ليونتيغيتش مرهما ؟

— بالطبع ! اسود كالحداء .

— سييء ، عماه ، وهل استخدمته ؟ آخ سييء !

لقد بددت عدداً هائلاً من الكيلوغرامات من هذا المرهم الأسود ، وكثيراً ما وصفت البوتاسيوم اليودي . وكثيراً ما تلفظت بألفاظ غاضبة . استطعت أن أعيد بعض المرضى بعد الدهنات الست الأولى ، واستطعت أن أقدم لبعضهم الجرعات الأولى من العلاج بالحقن ، لكن ليس للجميع ولبس بصورة تامة .

لكن عدداً كبيراً منهم تسلل من بين أصابعي ، كالرمل في الساعات الرملية ولم استطع العثور عليهم في هذا السديم الثلجي . آخ لقد أقتنعت تماماً أن السفلس هنا مخيف جداً ، وهو مخيف لأنه لا يخيف أحداً من المصابين به . لهذا بالذات تحدثت في بداية ذكرياتي هذه عن المرأة ذات العينين السوداوين وتذكرتها باحترام شديد ؛ احترام شديد لخوفها بالذات . لكنها كانت واحدة لا غير .



أصبحت أشد عوداً وأكثر انتبهاً ، وأكثر تجهماً في بعض الأحيان . كنت أحلم بذلك اليوم الذي ستنتهي فيه فترة عملي هنا ، وأعود الى المدينة الجامعية ، هناك يصبح كفاحي أسهل بكثير .

في يوم من تلك الأيام الحالكة دخلت امرأة الى غرفة العيادة ، كانت شابة جميلة الظهر ، تحمل بين يديها طفلاً في الفلغافه ، واندفع وراءها

طفلاً يتمنّان ويتخبطان بجزمتيهما المفرطتي الطول ، يمسكان بتنورتها
الزرقاء البارزة من تحت فروتها الفصيرة .

قالت المرأة ذات الخدين المنوردين بوقار :

— الطفح هاجم الأولاد .

لمست بحذر جبين الطفلة المتمسكة بالتنورة فاخبتأت في ثنايا التنورة
حتى أختفت عن الأنظار ، وبرز وجه سمج غير عادي يشبه فانكا(*)
مستطعلاً من جانب التنورة الثاني . لمست : حرارة الجبين العادية تماماً
وليست مرتفعة .

— اكتفي يا عزيزتي ، عن الطفلة المفوفة .

فكت القماط عن الطفلة فتكشف الجسد العاري عن بثور لا يقل
عددها عن نجوم السماء في ليلة جليدية باردة ، انتشرت هذه
البنور على كامل الجسد ، واشتفخ إلى جانبها حبوب وردية من الأرجل
حتى الرأس .

فكر « فيانكا » أن يدافع عن نفسه فبكى .

جاء ديميان لوكيتش كي يساعدني . . .

سالت الأم وهي تنظر بعينيها المطمئنتين :

— اهو الرشع ؟

دمدم ديميان لوكيتش وهو يلوي فمه بأشمزاز وحزن :

— كل مدينة كاربوف مصابة بالرشع !

(*) فيانكا : لعبة لها هيئة مدببة ، وبسبب نقل رجليها الشديد بقي وافلة دائماً .

— ماذا يكون إذا ؟ سألت الأم بينما كنت أنظر في جبينها وصدرها
الذين انتشرت فيهما البقع .

البسي ! قلت لها .

جلست بعد ذلك إلى الطاولة ، ووضعت رأسي بين يدي وتشاءبت
(لقد كانت واحدة من بين الأخريات إذ كان رقمها ٩٨) ، ثم قلت :

— أنت مريضة ، يا خالة ، وكذلك أولادك « بمرض ملعون » ؛
مرض مخيف وخطير . يجب عليكم جميعاً أن تبدؤوا بالعلاج من الساعة .
علاج طويل .

من المؤسف أن الكلمات لا تستطيع أن تصور عدم الثقة في عيني
الحرمة الجاحظتين الرقائوين . فتلت الطفل كالحطبة بين يديها ونظرت
ببله في رجليه وسالت :

— من أين هذا ؟ ثم ضحكت ضحكة ساخرة ملتوية .

أجبتها وقد بدأت ادخن السيجارة رقم ٥ . لهذا اليوم :

— من أين ؟ ! لا فائدة من هذا السؤال . الأفضل أن تسألي ماذا
سيحدث مع أولادك إذا لم يتعالجوا .

فأجابت وقد أخذت تلفّ الطفل بالقماط :

— ماذا يمكن أن يحدث ؟ لن يحدث شيء ...

أذكر تماماً ، وكأن الأمر يحدث الآن أن ساعتني كانت موضوعة على
الطاولة أمام عينيّ . وأنني لم أتحدث أكثر من ثلاث دقائق حتى أخذت
المرأة تنحب وأنني كنت سعيداً جداً لتلك الدموع ، إذ لم يكن ممكناً

الاستمرار في الحوار الى آخره إلا بفضل تلك الدموع التي سببتها
- عن قصد - كلماتي القاسية والمخيفة .

وهكذا بقوا في المشفى .

- من فضلك يا ديميان لو كيتنس ضعهم في الجناح المستقل ،
وسنتدبر الأمر فيما يخص مرضى التيفوئيد ، سنضعهم في العنبر الثاني ،
وسأذهب غداً الى المدينة كي احصل على الموافقة لفتح قسم خاص ونابت
لمرضى السفلس .

فجبر اهتمام عظيم في عيني مساعدي وقال :

- ماذا نقول يا دكتور (كان شديد التشاؤم) ؟ وكيف سنستطيع
تدبر الأمر وحدنا ؟ وماذا عن الاجهزة . لا يوجد ممرضات إضافيات ...
والطبخ .. ؟ والادوات والحقن ؟ ! هزرت رأسي بغباء وعناد وقلق ..

سأحقق ذلك .

* * *

مرّ شهر ...

كان ضوء المصابيح ذات الاغطية الصفيفية مناراً في الغرف الثلاث
للقسم الجديد المغمور بالثلج . كانت غطاءات الأسرة الببيض ممزقة ،
وكان ثمة محقنان فقط لا غير ؛ واحد صغير يتسع لفرام واحد ، وآخر
لخمس غرامات - من نوع ليونير - . بكلمة واحدة إنها مأساة تدعو إلى
الشفقة حملها الثلج الى هنا . لكن ، ... ثمة محقنة تقف باعتزاز وحدها ،
استطعت بفضلها - كنت أكاد اتجمد من الخوف - أن أقوم بحقن
« الملح الذهبي » وهي حقن جديدة وصعبة وملغزة بالنسبة إلي .

وبعد ! كان ضميري مطمئناً . فقد رقد في هذا القسم سبعة رجال
 وخمس نساء ، ويوماً عن يوم أخذت تتلاشى أمام عيني الطفحات النجمية .

وفي إحدى الأمسيات ، كان ديميان لو كيتش يمسك المصباح الصغير
 ليلسلط الضوء على فيانكا الخجول ، كان فمه مدهوناً بعصيدة السميد ؛
 لكن ، لا نجوم عليه البتة . . . وهكذا مرّ الأربعة تحت ضوء المصباح . . .
 ليربحوا ضميري .

سالت الأم وهي تصلح بلوزتها .

— سنخرج غداً من المشفى من كل بدّ .

فاجبتها :

— لا ، لايجوز ، لابد من الصبر على متابعة برنامج العلاج .

— لا ، لست موافقة ، لدينا أشغال كثيرة في البيت . شكراً للمساعدة
أخرجونا غداً . نحن الآن معافون .

حمى الحوار فأصبح كالنار وانتهى على النحو التالي :

قلت لها ، وأنا أشعر أنني أصبحت أحمر :

— أنت تعرفين ، أنت تعرفين . . . أنت حمقاء ! . . .

— لماذا هذه الشتائم ؟ أهذه هي العادة عندكم ؟ تشتمون . . .

— وهل يكفي أن أقول لك « حمقاء » أنت لست حمقاء ، بل . .

بل . . . انظري الى فيانكا ! هل نريدين أن تقتليه ؟ هذا ما لن أسمح
 لك به .

وبعدها بقيت في المشفى عشرة أيام أخرى .

عشرة أيام ، وبعدها لن يمنعها أحد عن الخروج وأنا كفيل بذلك .

لكن ، كونوا على ثقة كان ضميري مطمئناً بل انني لست نادماً على استخدام كلمة حمقاء . ماذا يمكن أن تكون الشنائم بالمقارنة مع هذا الطفح النجمي ؟

وهكذا مضت السنون . منذ زمن بعيد فرقت الأقدار والأيام الصعبة بيني وبين القسم المغمور بالنلج . ماذا يمكن أن يكون هناك ، الآن ، ومن ؟ أنا واثق أن الأمور أفضل الآن . البناء مكلس بالأبيض ، ومن المحتمل أن تكون البياضات جديدة . لا يوجد كهرباء بالطبع . ومن الممكن أنه ، وأنا أكتب هذه السطور ، ثمة رأس شاب ينحني على صدر مريض ليفحصه . ومصباح الكاز يلقي أشعته الصفراء على جلد المريض المصفر .

سلاماً يارفيقي .

* * *

المنشفة ذات الديك

ليس لدي ما أصفه لمن لم يقطع على ظهور الجياد الطرق المقفرة التي
تعبر الغابات الكثيفة ؛ فهو على كل حال لن يفهم شيئاً . أما من قطعها
فلن أذكره .

أقول باختصار : قطعت برفقة الحوذي في ليلة كاملة القراسخ
الأربعين التي تفصل بين مدينة غراتشيفكا مركز القضاء ومشفى
(مورينسك) . ومما يثير الدهشة أننا كنا في الساعة الثانية يوم السادس
عشر من أيلول عام / ١٩١٧ / عند آخر حانوت على حدود تلك المدينة
الرائعة غراتشيفكا ، وأننا في الثانية وخمس دقائق في السابعة عشر من
أيلول من عام / ١٩١٧ / نفسه الذي لا ينسى كنا نقف في فناء مشفى
(مورينسك) على الأعشاب الميتة التي يظلمها مطر أيلول . كنت أقف وقد
تصلبت رجلاي من شدة البرد إلى درجة أنني لم أبرح الفناء ، بل أخذت
أتذكر تذكراً مبهماً مقلباً صفحات كتبي الجامعية ، ومحاولاً بغباء أن
أتذكر : أحقاً يوجد مرض يؤدي إلى تصلب أنسجة العضلات ، أم أن
الامر مجرد حلم تراءى لي البارحة في قرية غرابيلوفكا ؟ وما اسم هذا
المرض اللعين باللاتينية ؟ . كان الألم الذي لا يحتمل في كل عضلة من
عضلات رجلي يذكر بألم الأسنان . أما أصابع رجلي فلا ضرورة للحديث
عنها إذ لم تعد تتحرك في الحذاء واستسلمت لحالتها . اعترف أنني في
لحظة الضعف هذه لعنت الطب ، ولعنت طلب الانتساب إلى الجامعة الذي
قدمته منذ خمس سنوات إلى رئيسها .

في تلك اللحظات انهمر عليّ مطر غزير كأنه يمر عبر منخل ، فانتفخ
معدفي وأصبح كالإسفنجة . حلولت مبثاً أن أمسك بأصابع يدي اليمنى

فبضة الحقيبة ، فبصقت في نهاية الأمر على العشب المبلل إذ إن أصابعي كانت عاجزة عن إمساك أي شيء ، وتذكرت من جديد - أنا الممتلىء بالمعارف المختلفة التي حصلتها من كتب الطب الغنية - مرض النسل . ففكرت فأنظاً ثم قلب في نفسي إن الشيطان وحده يعرف لماذا أفكر في هذا المرض .

فلت وفد ازرققت شفطاي وتجمدت :

- يجب ام . . اعتياد السفر على هذه الطر . . طرقات .

قلت هذا وأنا أحملق بحقد إلى الحوذى ، دون أن أعرف سبباً لحقدي هذا ، علماً أنه - والحق يقال - لا يحمل ذنب هذه الطريق .

أجاب الحوذى وهو بالكاد يحرك شفطيه اللتين يعالوهما شاربان صفران شائبان :

- آه أيها الرفيق الدكتور ! منذ خمس عشرة سنة وأنا أسافر على هذه الطريق ولم اعتدها بعد .

ارتعست ونظرت بأسى نحو البناء الأبيض المحقر ذي الطابقين ، ونحو الجدران الخشبية غير المطلية لبيت مساعد الطبيب ، ثم نحو مقرتي المقبل : إنه بناء شديد النظافة مؤلف من طابقين ، ذو نوافذ غامضة تشبه التوابيت . تنهدت تنهيدة طويلة . عندها لاحظت في ذهني على نحو غائم - بدل الكلمات اللاتينية - عبارة جميلة كان قد غناها في ذهني المعتل من البرد والارتجاف مغن ذو فخذين أرومين ، يغني بصوت رجولي مرتفع :

« مرحباً بك . . . أيها الملا . . جا المقد . . س . . » .

وداعاً ، وداعاً إلى أجل بعيد ، وداعاً يا مسرح البلشوي المذهب
الجميل ، وداعاً يا يا موسكو ، أيتها الواجهات ... آه وداعاً ...

« قلت في نفسي بياس وحنق : سأرتدي فروة في المرة القادمة » .

نم حملت الحقيبة من أحزمتها بيدي المنصليتين وقلت في نفسي :
سأرتدي في المرة القادمة فروتين على الرغم من أن المرة الثانية ستكون في
تشرين الأول ، وإن أسافر قبل شهر من الآن إلى غراشفكا ...
نصورو! ... كان علينا أن ننام ... لقد قطعنا عشرين فرسخاً في الليلة
مظلمة كظلام القبر حتى وصلنا إلى غرايفوفكا ، وفيها كان يجب أن
ننام ... وقد سمح لنا المدرس ... وانطلقنا منها اليوم في السابعة
صباحاً وهكذا نسافر ... يا إلهي يا قديسين ... بسرعة أشد بطئاً
مما لو كنا نمشي ... تتخبط المجلة الأولى في حفرة ، وتطير الثانية في
الهواء ، وتقع الحقيبة على القدمين ... بو ... فأميل على جانبي ، لم
على الآخر ، ويندفع أنفي إلى الامام ، ويرتد قفائي إلى الخلف ، في حين
ينسكب المطر من فوق وينسكب فترتجف العظام . هل كنت أنصور من
قبل أن المرء يتجمد في السهوب في منتصف أيلول الحار كما يحدث في
الشتاء القارس !؟ بل هو أنه يتجمد ... وإلى أن يحين وقت الموت برداً
فإنه يرى أشياء لا تتغير : « عن اليمين سهوب مقفرة محدودة ، وعن
اليسار ادغال باهتة بجوارها خمس مزارع رمادية مهملة أو ست ، يبدو
أن لا روح حية فيها ... سكون ... إنه السكون المطبق ... » .

استسلمت الحقيبة في نهاية المطاف . إذ دفعها الحوذي ببطئه
نحوي ، وأردت أن اتناولها من أحزمتها ، لكن يدي تمنعت عن العمل ،
فهوت الحقيبة المنتفخة رقيقة دربي الملوثة بالكتب والامتعة المختلفة على
العنكب بعد أن صدمت رجلي .

— آه يا إلهي ، قال الحوذي خائفاً ، لكنني لم أبدر أي اعتراض إذ
كانت الأمور كلها منساوية عندي . حتى لو قطعت رجلاي فلن
أشعر بهما .

وشرع الحوذي يصرخ ويضرب الباب بيديه كما يضرب الديك
بجناحيه :

— هيه ، هل من أحد هنا ؟ هيه لقد وصل الطبيب !

عندها ظهرت بعض الوجوه من خلال الزجاج المعتم لبیت مساعد
الطبيب ؛ التصقت بالزجاج . ثم صرّ الباب ورأيت كيف جرى نحوي على
العشب شخص يرتدي معطفاً بالياً وينتعل جزمة مهترئة . نزع قبعته
باحترام وسرعة ، ثم اقترب مني خطوتين ، والسبب ما ابتسم ابتسامة
خجولة ورحب بي بصوت أجش قائلاً :

— مرحباً بك أيها الرفيق الدكتور !

سألته : — من أنت ؟

فقدم الشخص نفسه :

— أنا إيفوريتش ، الحارس هنا . إننا ننتظركم ننتظركم !

وعلى الفور أمسك بالحقيبة ووضعها على كتفه . وانطلق في حين
رحلت أخرج خلفه محاولاً عبثاً أن ادس يدي في جيب البنطلون لأخرج
«أفظة نقودي» .

يحتاج المرء في الحقيقة — أشياء قليلة جداً ، وقبل كل شيء يحتاج
النار . أذكر أنني عندما انطلقت من موسكو الى هذه الغابة النائية
(مورينسك) كنت قد صممت على أن أكون وقوراً . لكن التسباب في
هيئتي قد أفسد علي حياتي منذ اللحظات الأولى . إذ كن عليّ أن أعرف
بنفسي أمام كل شخص .

— أنا الدكتور فلان .

وكان لا بدّ لأي شخص يسمع ذلك من أن يرفع حاجبيه ويسأل :

— أحقاً ذلك ؟ ظننتك لما نزل طالبا .

— لا ، فقد أنهيت دراستي . كتب أجيب عاجساً ثم أفكر : « لا بد لي من اقتناء نظارتين ، هذا هو الأمر » لكنني لم أكن في حاجة لشراء نظارتين ، فعيناي سليمتان ، لم تعكر صفوهما تجارب الحياة . ولأن النظارتين لن تساعداني في شيء ، بل ستثير انتباه الآخرين ومداعباتهم التي لا أستطيع الرد عليها ، حاولت أن ألتمز سلوكا خاصا يستدعي الاحترام : كان أتحدث باقتضاب والزمان ، وأن أقبل من الحركات المندفعة ما أمكن ، والأاعدو كابن ثلاثة وعشرين علما أنهى الجامعة لتوه بل أمسي بهلوه .

أما الآن فقد فهمت بعد مضي سنوات عدة أن سلوكي هذا كان شديد السوء . وها أنذا أنقض الآن مخططي السلوكي غير المكتوب إذ أجلس متكوما على نفسي مرتدياً جواربي فقط — ليس في أي مكان من غرفة المكتب بل في المطبخ أمد نفسي — كعابد النار — بشوق وإلهام نحو حطب أشجار البتولا في الموقد . إلى يساري تمة برميل مقلوب رأسا على عقب . وضعت عليه حدائي ، وبالقرب منهما ديك منتوف مسلوخ ذو رقبة مدماة ، وقد تكوم الى جانبه ريشه المختلف الألوان .

وفي واقع الأمر ، فقد قمت — على الرغم من حالة التجمد التي أنا فيها — بسلسلة من الأعمال التي تتطلبها الحياة : اذ كلفت أكسبنيا ذات الأنف الحاد ، زوجة إيفوريتش بمهام الطبخ لي ، ونتيجة لذلك نحر الديك تحت يديها . فقد كان لا بد لي من أن آكل شيئا ، وكذلك فقد تعرفت على الجميع هنا : مساعدتي ديميان لوكيتس ، والقبائلين بيلاجيا وإيفانوفنا وأنا نيكولايفنا ، وطففت في أنحاء المشفى فاقنعت اقتناعا تاما أنه مجهز تجهيزا جيدا بالأدوات اللازمة . وبالقدر نفسه كانت قناعتني تامة (بيني وبين نفسي بالطبع) أنني أجهل كيفية استخدام

الكثير من هذه الأدوات البراقة الجديدة . ولا تكمن المصيبة في أنني لم
المسها من قبل بل في أنني - بصراحة - لم أرها تتأ .

دمدمت بأسلوب شديد الإيحاء :

- هم .. هم ... يبدو أن لديكم تجهيزات طبية رائعة .

فعلق ديميان لوكيتش بأسلوب لطيف :

- كيف لا ؟! جمع هذه الأدوات كلها الطبيب السابق ليوبولد
ليوبولدوفيتش . فقد كان يجري العمليات طوال النهار .

عندها نظرت أسيان نحو الخزائن ذات المرايا المتلألئة ، وشعرت
أن العرق البارد قد تللني .

بعد ذلك طفنا العنابر الخالية من المرضى . ففهمت فهما أكيداً أنها
تتسع لأربعين شخصاً بسهولة واسألني ديميان لوكيتش بقوله :

- كان ليوبولد ليوبولدوفيتش يضع فيها خمسين مريضاً .

ولسبب ما عقيبت أنا نيكولايفنا ذات التاج الأبيض من الشعر
الاشيب :

- أنت دكتور شاب ... شاب إلى حد يثير الدهشة ... إنك
تبدو طالباً .

« قلت في نفسي » اللعنة « يا للشيطان . لقد تأمروا علي ، والله » .

فقلت بقرع وجفاف :

- هم .. م .. م .. لا ، أنا ... أعني ... أنا ... نعم ..
شاب ...

من ثم ذهبنا الى الصيدلية فلاحظت فوراً انه لا ينقصها إلا حليب العصفورة فقد كانت غرفتها المعتمتان تعبقان بروائح الأعشاب المنتشرة واكتظلت رفوفهما بما شئت من الادوية ، حتى تلك الادوية الأجنبية المخترعة حديثاً ، ولا أدري إن كان ثمة دافع لان اضيف انني لم أسمع عن هذه الادوية شيئاً البتة .

قالت بيلاجيا لايفانوفنا بعزاز :

— كان ليوبولد ليوبولدوفيتش يصفها للمرضى .

قلت في نفسي وأنا أشعر باحترام شديد تجاه ليوبولد المجهول الذي رحل من هنا بهدوء : « كان ليوبولد هذا شخصاً عبقرياً بحق » .

ناهيك من حاجة الإنسان إلى النار فإنه يحتاج إلى التأقلم أيضاً كنت قد التهمت الديك منذ وقت قصير ، وكان ايفوريتش قد حثاً فراشي بالحشية وغطاه بالملاعات ، وكان المصباح مضاء في غرفة المكتب في منزلي هذا . جلست في غرفة المكتب انظر مسحوراً اتفحص الإنجاز الثالث لليوبولد الاسطوري : فقد كانت رفوف المكتبة مملوءة بالمكتب الى آخرها ، واستطعت أن أحصي بسهولة ثلاثين كتاباً من كتب المعلومات الأساسية في الجراحة باللغتين الروسية والألمانية ، وغير ذلك من كتب الطب الباطني ، والأطالس الرائعة للأمراض الجلدية !

مضى المساء ، وشعرت بالآلفة .

قلت في نفسي بانزعاج وغضب : « لست مدنباً في شيء ، فانا أحمل شهادة الدبلوم ، وعندي خمس عشرة خمسة(*) . وقد نبهتهم هناك في المدينة الكبيرة انني أرغب أن أكون طبيباً مساعداً . لا . ابتسموا وقالوا : « ستأقلم » . هكلا اذن !! تأقلم . وماذا لو أكوني بحالة

* خمسة : هي العلامة التامة في نظام الامتحان الروسي . (المترجم)

فتاق ؟ اشرحوا لي كيف « سأأقلم » معها ؟! اشرحوا لي خاصة :
ما شعور المريض بالفتاق وهو بين يدي ؟ هل سيتأقلم هو مع العالم
الاخر (وشعرت بالبرد يلسع ظهري) . . .

وماذا عن التهاب الزائدة الدودية القيحي ؟ ها ؟ وحالات اللبحة
الدفتيرية عند الفتية الريفيين ؟ وماذا لو اضطرت لشق الرغامى ؟ فانا
بدون هذه البلية ، لن أكون سعيدا جدا . . . وماذا عن التوليد ؟! الأنسى
التوليد ؟! ماذا سافعل مع الولادات العسيرة ؟! يا لي من رجل ساذج !
كلن علي ان ارفض المجيء الى هنا ، كان علي ، وكان بإمكانهم ان يجدوا
لأنفسهم ليوبولدا . . » .

في جو من العتمة والحزن رحت أذرع غرفة المكتب جيئة وذهابا .
وعندما كنت أقف بجانب لمصباح كنت أرى كيف يتأرجح خيالي في
عتمة الحقول اللامتناهية الى جانب ضوء المصباح المنبعث من النافذة .

وخطرت في ذهني فكرة غبية مفاجئة « انني اشبه ديمتري
الكاذب »(*) ثم جلست من جديد وراء الطاولة .

مرت ساعتان وأنا أعذب نفسي ، حتى وصلت إلى مرحلة لم أعد
أطبق فيها الخوف الذي أحطت نفسي به . عندها بدأت أهدىء من
روعي وأرسم بعض الخطط المستقبلية .

لا بأس . . . يقولون إن حضور المراجعين الى المشفى نادر في هذه
الفترة . إذ ينشغل الفلاحون في القرى بطحج الكتان ، كما أن الطرق
غير سالكة . . . « إذا يمكنهم أن يحضروا حالة فتاق - نطق صوت جلف
في رأسي - لأن المصاب بالرشح (مرض سهل) لن يغامر بالحضور عبر

(*) ديمتري الكاذب : هو شخصية كاذبة ادعت أنها ديمتري ابن القيصر ، علما أن هذا
الطفل قتل وهو طفل .

الطرق المغلقة اما المصاب بالفتاق فإنهم سيحملونه إليك حتماً . اطمئن
أبها الدكتور العزيز .

ارتعدت لهذه الفكرة ! لأنها لم تكن غبية البتة ! اليس كذلك ؟

فقلت للصوت : « اسكت ! ليس شرطاً أن يكون الفتاق . ما هذا
الهلل ؟ أقبلت على فعل شيء فلا تقل قد لا أفلح » .

فأجاب الصوت ساخراً : « تلمي أنك ستفلح ، فأقبل
التحدي إذا » .

حسناً ... لن افارق الدليل الطبي أبداً ... إذا كان لا بد من
وصف الدواء فإنني سأفكر ريثما أفسل يدي وسيكون الدليل مفتوحاً
بجانب سجل المرضى مباشرة . سأصف للمرضى وصفات سهلة لكنها
نافعة ، مثلاً نترات الساليسيليزم(*) نصف غرام ، حبة واحدة ،
ثلاث مرات في اليوم .

علق محدثي الداخلي بسخرية واضحة « يمكنك أن تصف
الصودا ! » .

— وما علاقة الصودا هنا ؟ بل سأصف الإيبكواثكا(**)
المحلولة ... ب ١٨٠ او ٢٠٠ ملم ماء . أسمح بذلك ؟

وعلى الرغم من أن أحداً لم يطلب مني في تلك اللحظة في وحدتي
عند المصباح الإيبكواثكا فقد قمت هلعاً أتصفح دليل الوصفات الطبية
لأؤكد من هذا المستحضر ، وأثناء ذلك قرأت على نحو آلي عن وجود
مستحضر « الإنيسيين » في عالم الطب .

(*) الساليسيليزم : الصوديوم الصفصافي : دواء مسكن يشبه الأسبرين .
(**) إيبكواثكا : (كلمة برتغالية) تعني عرق الذهب ، تستعمل جذورها في الطب
كدواء مقشع مساعد على الإقياء .

لا بد أنه « سلفات أثير مع حامض ثنائي الغول الكيني » ...
يبدو أنه ليس له طعم الكينا ! لكن ما فائدته ؟ ولاي الأمراض يوصف ؟
هل هو مسحوق ؟ ليأخذه الشيطان !

« فلندع الإنسيبين جانباً ... لكن ماذا ستفعل مع حالة الفتاق ؟ »
هكذا ألح عليّ الخوف متمتلاً بصوت يأتيني من الأعماق .

فدافعت عن نفسي دفاع الغاضب : « سأضعه في البانيو ، نعم في
البانيو وسأحاول إعادة الأمور إلى نصابها » .

فأجاب الخوف بصوت شيطاني : « إنه فتق محتصر ، ياملأكة ،
فمن أي بانيو تتحدث ! محتصر ، لابد من الجراحة ... » .

عندها استسلمت بل كنت أبكي ، وصليت متوجهاً نحو العتمة
خلف النافذة راجياً أن يحدث أي شيء عدا الفتاق المحتصر .

قال لي الإرهاق :

« نم قليلاً أيها الطبيب التعيس . ستشبع يوماً الآن وغداً سبصبح
كل شيء واضحاً . هدىء من روعك أيها الشاب الخائر الأعصاب . انظر
من حولك فاللظمة خلف النوافذ هادئة ، والحقول المتجمدة نائمة وليس
ثمة فتاق . وغداً ستغدو الأمور واضحة . ستتكيف ... نم الآن ...
دع الأطلس فلن تفهم منه شيئاً على كل حال ... فتلق دائري ... » .

لم أفهم كيف طار ذلك الصوت . أذكر أن المزلج قد قرع بعنف
، وأن أكسينيا قد قالت شيئاً ما ، وأن عربة ما كانت تصرّ خلف النوافذ .

كان حاسر الرأس ، يرتدي فروة مفكوكة الأزوار ، وله لحية شعشاء ،
وعينان مجنونتان .

رسم إشارة الصليب وركع على ركبتيه ضارباً جبينه بالأرض .

قلت في نفسي بحزن : « لقد ضعت » .

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟ ماذا ؟ قلت وأنا أرفعه من كمه الرمادي .

لوى وجهه ثم نزع يقول متلعثما مبعثراً كلماته :

— سيدي الطبيب ... سيدي ... إنها وحيدتي وحيدتي ..
قال ذلك بصوت شابٍ هادئٍ اهتز له غطاء المصباح . ثم ثنى يديه بحزن
وراح يضرب رأسه بالأرض كأنه يريد تهشيمه وهو يصيح :

— آخ يا إلهي آخ ... ! لكن لماذا ؟ لماذا أعاقب .. ؟ ما هو ذنبي .. ؟

فصرخت به وأنا أشعر بالبرد يوسع وجهي :

— ماذا ؟ ما الذي حدث ؟!

فقفز على قدميه ومطّ جسده نحوي وأخذ يقول :

— سيدي الطبيب ... كل ما تريد ... أعطيك مالا ... خذ
ماشتت من المال ، خذ ما تريد .

سأحضر لك ما ترغب من المؤونة ... أنقذ حياتها فقط ، لا تدعها
تموت ! أبقيها وألّو شواء ، لا بأس ، ليكن .

ثم صرخ متجها نحو السقف : لدينا ما يكفي لإطعامها ...

بدا وجهه أكسينيا الشاحب وكأنه معلق في الفراغ الأسود . وغمر
الحزن فليبي فصرخت به متألماً :

— ماذا ؟ ماذا ... ؟ قل !

هدأ الرجل فبدت عيناه كأنهما بلا قاع . ثم أخذ يهمس لي كأنه
يودعني سراً :

- سقطت في محلبة الكتان .

- في المحلبة ...؟ وسالت ثانية - في المحلبة ؟ ماذا تعني كلمة محلبة ؟

فهمست لي أكسينيا شارحة :

- كتان ، يحلجون الكتان ياسيدي الدكتور ... المحلبة تحلج الكتان ...

ففكرت وقد أخذني الهلع « يالها من بداية . لكن لماذا أتيت ؟ » .

- من الذي سقط ؟

- إنها ابنتي . ثم مالبت أن رفع صوته : ساعدوني ! ثم ركع من حديد على الأرض فغطى شعره المقصوص على شكل أقواس عينية ...



كان المصباح ذو الغطاء المعدني على شكل قرنين يضيء بهلوه . ورايتها على طاولة العمليات فوق الشرف الأبيض الذي يفوح نضارة ؛ فانقشعت فكرة الفتاق من ذاكرتي .

تدلى شعرها الذهبي من على الطاولة شعثاً مفتلاً في آخره . وبدأت حديلتها كثة يلامس طرفها الأرض . وتمزقت تنورتها المنقوشة وتلطخت بالدم فبدت مبرقة ببقع باهتة وأخرى صفراء وغيرها قرمزية . وبدأ لي نسوء المصباح أصفر حياً ، وبدأ وجهها أبيض باهتاً وأنفها مدبباً .

نوى على وجهها الأبيض الذي يشبه الثلج الساكن ، جمال حقيقي نادر ، لا يرى المرء مثله دائماً ، بل قلما يرى مثله .

ساد الصمت المطلق لعشر توان في غرفة العمليات ، لكن كان تمة
بحيب خافت لشخص ما خلف الباب الموحد ، وتمة ضرب للرأس على
الأرض .

وفكرت : « لقد خولط في عقله وهذا يعني ان المرضات سوف
يسقونه شيئاً ما . . . ما سر هذا الجمال ؟ صحيح ان ملامح الاب
جميلة ايضاً ، لكن الام على ما يبدو كانت حسناء . . . إنه أرمل . . . »

همست على نحو آلي :

— الأرمل هو ؟

فاجبت بيلاجيا إيفانوفنا بهدوء :

— نعم أرمل .

في تلك اللحظة مزق ديميان لوكيتش بحركة نزقة تنورة الفتاة من
بدايتها وحتى نهايتها ، فعرّاها تماماً .

نظرت فرايت ما فاق بصوري ، إذ لم يكن تمة رجل يسري ؛ ولم
ينن غير مزق تنزف ، وعضلات مهروسة دامية بين ركبتها المحطمة
ووركها . وقد نتأت العظمت المهنمة في كل الجهات . أما الرجل اليمنى
فقد كانت مكسورة في غير ما موضع وقد برزت العظام عبر الجلد عند
الساق . ومن جراء ذلك كانت فدهما ميتة تمددت فوق الطاولة كأنها
جزء مستقل لا علاقة له بباقي الجسد .

— أواه . دمدم مساعدي ولم يصف أي كلمة أخرى .

وقتها صحت من الصدمة الاولى ، فاخذت يد الفتاة لارى نبضها
الذي لم يكن محسوساً في يدها الباردة ؛ ولم اشعر بالنبضة الخافتة إلا

بعد مرور بضع نوان . وضعت النبضة ... فكان ثمة فاصل زمني
استطعت خلاله أن أنظر إلى أنفها الأزرق وشفنيها البيضاوين أوشت أن
أقول : إنها النهاية ... لكنني لم أفعل لحسن الحظ ... إذ شعرت
بنبضة خيطية أخرى تحت إصبعي .

« فكرت : هكذا يموت الإنسان الممزق ، ولا يمكن مساعدته
بنسبي » ...

وفجأة قلت بصوت خشن حتى إنني نفسي لم أعرفه :

— الكافور * !

عندها انحنت أنا نيكولايفنا نحوي وهمست في أذني :

— لماذا الكافور يا دكتور ؟ لا تعذب نفسك ! لماذا الحقن أيضاً ؟
ستموت قريباً ولن تستطيع إنقاذها .

حدقت فيها بلوّم وعبوس وقلت :

— أرجو إعطائي الكافور ...

فهرعت أنا نيكولايفنا إلى طاولة الأدوية مهتاجة مستاءة واحضرت
الحبابة .

ولم يكن مساعدي موافقاً على حقن الكافور على ما يبدو ؛ لكنه على
الرغم من ذلك تناول المحقنة بسرعة وإتقان وحقن الفتاة تحت جلد كتفها
الأيسر بالزيت الأصفر .

(*) استخدم الكافور قديماً لعلاج عدة حالات مرضية أهمها تخفيف الألم .

« قلت لها في نفسي : موتي هينا اسرعي ، موتي وإلا فإنني لا أعرف
ماذا أفعل بك » .

قال مساعدي وكأنه يقرأ ما في ذهني :

— ستموت الآن .

ثم نظر بطرف عينه إلى الشرشف ؛ وكان — على ما يبدو — يقول
بينه وبين نفسه : من المؤسف ان يثلث الشرشف بالدم . لكن ، بعد
نضع ثوان كان لا بد من تغطيتها به .

كانت ممددة جثة هامدة لكنها لم تمت بعد — وفجأة أصبح كل
شيء واضحاً في ذهني كما لو أنني في مشرحة الجامعة ذات السقف
الزجاجي .

قلت :

— أعطوها الكافور أيضاً .

فحقنها مساعدي مرة ثانية بطلمة تلمة .

« قلت في نفسي : أويمكن الا تموت ؟ هل سأكون مضطراً أن . . . »

أصبحت الأمور واضحة في ذهني تماماً إذ فهمت دون مساعدة أو
استشارة أو عودة إلى المراجع أن عليّ أن أقوم لأول مرة في حياتي ببيت
عضو في جسد شخص يحتضر — كانت ثقتي كبيرة بإدراكي هذا — آه قد
تموت تحت المبضع فقد نزع دمها حتى نضب كل ما عندها ، وهي تقطع
الفراسخ العنصرة بساقر مهشمة . وليس واضحاً إن كانت تشعر بشيء
الآن أو تسمع شيئاً . إنها صامتة تماماً . آه لماذا لا تموت ؟ ماذا سيقول
لي والدها المجنون ؟

قلت لمساعدتي بصوت غريب :

— جهزوا لعملية البتر !

نظرت القابلة نحوي نظرة مفترسة ، أما مساعدتي فقد لمعت في عينيه إشراقة معطف معي ؛ لم انهمك في تحضير أدوات الجراحة . وأشعل (بابور) الكاز .

ربع ساعة مضت . رفعت جفنها البارد ونظرت برعب شديد في عينها المنطقشة . لم أستطع فهم أي شيء . كيف يمكن لنصف جثة أن تحيا . وتدفع على جبيني قطرات العرق المالح المندفعة من تحت القبة البيضاء . وأخذت بيلاجيا إيفانوفنا تمسح عرقى بقطعة الشاش البيضاء .

تسلل المخدر إلى بقايا الدم في عروق الفتاة . أكلن ضروريا حقنها بالكافيين ؟ انهمكت أنا نيكولايفينا بتدليك الانتفاخات التي نتجت عن الحقن في أرداف الفتاة . أما الفتاة فما زالت حية .

أمسكت الموضع محاولاً تقليد شخص ما (لم أر في حياتي الجامعية عملية بتر إلا مرة واحدة) ورجوت القدر ألا يغيبها عن الوجود في نصف الساعة القادمة ، « والتمت فيما بعد في العنبر بعد إنهاء العملية » .

كان ذهني المتيقظ يعمل نيابة عني ، تحفزته تلك الحالة غير العادية . حوزت الفخذ دائرياً بإتقان كأنني لخاتم خبير فانتفخ الجلد دون أن ينزف قطرة واحدة . « ماذا سأفعل عندما يبدأ الدم بالسيلان من الأوعية ؟ » فخرت بذلك ونظرت كدئب نحو كومة الملاقط . فطعت قطعة كبيرة من لحم الفتاة وشريانا يسبه الأنبوب الأبيض ، ولم تنزف منه نقطة دم واحدة . ضغطت على الشريان بأحد الملاقط وتلعت العمل وأضعا الملاقط في الأماكن التي يحتمل وجود الأوعية الدموية فيها شريانا شريانا . تحولت عرفة العمليات إلى مشفى كبير ، وتدلت الملاقط كالعناقيد تشدها إلى

الأعلى مع اللحم ربطة الشاش . ثم بدأت أقطع عظم الفخذ المدور بمنشار
لامع ناهم الأسنان . « لماذا تموت ... ؟ إنه لمدھش كيف يتعلق الإنسان
بأهداب الحياة ! » .

بعد أن انفصل العظم بعضه عن بعض بقي في يد ديميان لو كيتش
ما كان من قبل سافاً للفتاة . قطع لحم ممزق ، عظام ! وضعنا هذه
الاشياء جانباً ، وبقيت الفتاة ممددة على الطاولة وقد تقلص ثلثها بسبب
العضو المبتور الموضوع جانباً . كنت اقول لها في قلبي : « انتظري قليلاً !
قليلاً فقط ، لا تموتي ! اصبري حتى ننقلك إلى العنبر ، المنحني فرصة
لأخروج بسلام من هذا الموقف الأكثر رهبة في حياتي » .

فيما بعد قطبت الأوعية الدموية ، مستخدماً إبرة معقوفة ، ثم
أخذت أخيط الجلد بقطب قليلة من الحرير لكنني توقفت ، وكان إلهاماً
هبط عليّ ، وأدركت ... عليّ أن أترك فتحة للنزف ، فوضعت هناك
قطعة شاش ... بلل العرق عيني ، فشعرت أنني في الحمام ...

تنفست بعمق . ونظرت متألاً إلى الرجل المبتورة ، ثم إلى وجه
الفتاة الممتقع . وسالت :

— هل هي حية ؟

فاجابني مساعدتي وأنا نيكولايفنا بصوت كصدى متلاش :

— حية

— ستعيش دفيقة أخرى . همس المساعد في أذني وهو يحرك
شفتيه دون أن يصدر صوتاً . ثم تعلثم وقال ناصحاً باحترام :

— الأفضل ألا نلمس الرجل الأخرى ، وإن نكتفي بلفها بالشاش
وإلا فإنها لن تصل إلى العنبر ... هه ؟ سيكون من الأفضل ألا تموت في
غرفة العمليات .

— أعطوني الجبس ! امرت بصوت اجنس تدفعني قوة مجهولة ...

— عمت بقع الجبس الأرض ، بينما بللنا العرق جميعاً . كان نصف
الجثة ممدداً بلا رحاك ، وكنت الساق اليمنى وقد لفت بالجبس ما خلا
فتحة صغيرة أهيتها كالنافذة مكان الكسر .

قال مساعدي مدهوشا :

— ما زالت حية .

حملناها بعد ذلك لننقلها — كان واضحاً تحت الشرشف حجم الجزء
الكبير الذي فقدته — تاركين ثلث جسدها في غرفة العمليات .

كانت الظلال تتحرك في الممر ، وهرعت الممرضات ... ورايست
كيف كانت هيئة لرجل اشعث تسير جانب الحائط ونعول عويلا جافاً .
لكنهم أبعدوها . فخيم صمت .

كنت أغسل في غرفة العمليات يديّ اللدماين حتى الاكواع ، عندما
سالتني أنا نيكولايفنا :

— يبدو أنك اجريت عمليات بتر كثيرة يا دكتور ؟ لقد عملت عملاً
ممتازاً لا يقل عن عمل ليو بولد ...

كانت دائماً تلفظ كلمة ليوبولد كأنها كلمة « دواين(*) » .

نظرت بتجهم في وجوه الحاضرين ، كانت عيونهم — حتى ديميان
، كيتش ويلاجيا أيفانوفنا — تسي بالاحترام والدهشة .

— احم ... اتعرفون ! اجريت عملية كهذه مرتين قبل الآن ...

(*) دواين : بالفرنسية Doyen ومعني الزعيم ، المهم .

لماذا كذبت ؟ لا أفهم الآن لماذا ؟

خيم الهدوء في المشفى تماماً .

أمرت مساعدي بنصف صوت .

— عندما تموت أرسلوا من يحبرني .

فاجاب مساعدي باحترام :

— بأمرك يا سيدي ، ولم يقل « حسناً » .

بعد دقائق قليلة كنت في الشقة المخصصة للطبيب ، اجلس في غرفة
مكتبي بالقرب من المصباح الأخضر . كان البيت صامتاً .

الانعكس وجهي الشاحب على الزجاج الأسود .

« لا لا أشبه ديمتري الكلاب ... لكنني على ما يبدو شخت قليلاً »
ثمّة تجعيد بين الحاجبين ... سيقرعون الآن الباب ويقولون : « ماتت »
« سأذهب وألقي عليها نظرة أخيرة ... الآن سيقرع الباب » .

وقرّع الباب . كان هذا بعد شهرين ونصف . كلن واضحاً عبر
النافذة ان أيام الشتاء الأولى قد حلت .

دخل هو ، لم أنعم النظر فيه الا وقتها . كانت ملامح وجهه طبيعية
فعلاً ، تنم على خمس وأربعين سنة . وكانت العينان مشرقتين .

بعدها سمعت خفيفاً ... فدخلت فتاة برجل واحدة تتكىء على
عكازين وترتدي تنورة فضفاضة خيطة أطرافها « بكشاكش » حمراء .
كانت فائقة الجمال .

— في موسكو . . . في موسكو — وأخذت أدون العنوان — هناك
يصنعون الأعضاء الاصطناعية وسيصنعون لك ساقاً .

أمرها واللهها فجأة :

— قبلي يده .

ويبدون ذلك كان ارتباكى شديداً ، فقد قبلتها من أنفها بدلا من
وجهها .

عند ذلك أخرجت — وهي تتكىء على عكازيها — لفافة فماش
وفردتها ، فظهرت منشفة ناصعة البياض طرز عليها على نحو بدائي ديك
أحمر . نعم هذا ما كانت تخبئ تحت مخدتها عندما كنت أفحصها . . .
نعم أذكر كيف كنت تضع الخيوط على الطاولة .

— لا آخذها . قلت بلهجة صارمة بل هزرت رأسي أيضا . لكن
وجهها وعينيها تغيرا إلى حد جعلني أقبل الهدية .

ظلت المنشفة معلقة لعدة سنوات في غرفة نومي في قرية مورينا
ومن ثم ارتطمت معي أنني ارتطمت . وفي النهاية بليت واهترات . . . ثم
اختفت كما تختفي اللكريات وتمحي .



العين المفقودة

وهكذا انقضى عام ؛ عام كامل على وصولي الى هذا المنزل . كانت ستائر المطر في ذلك اليوم معلقة بين السماء والأرض كما هو الآن ؛ وكانت آخر الوريقات الصفرة على أشجار البتولا (*) قد تراخت ... شعرت ان شيئاً لم يتغير من حولي ، لكنني أنا نفسي تغيرت تغيراً شديداً . سأحيي أمسية الذكريات في وحدتي المعلقة ... مشيت فوق الأرضية الخشبية التي تصرّ تحت قدمي متجهاً نحو غرفة النوم . نظرت في المرآة ... نعم ، الفرق كبير جداً ؛ فعند عام مضى انعكس في المرآة المستلة من الحقيبة وجه حليق ، وزينت تسريحة الشعر الجانبية وقتها الرأس الذي بلغ ثلاثة وعشرين عاماً ، أما الآن فقد اختفت التسريحة تماماً ، وغلب شعر الرأس مرسلًا الى الخلف دون أي ممانعة ؛ إذ لا يمكن للتسريحة أن تغوي أحداً في مكان يبعد عن طريق سكة الحديد ثلاثين فرسخاً ، وهذا ما ينطبق على حلقة الدقن أيضاً .

فوق الشفة العليا توضع بحزم شعيرات تشبه فرشاة أسنان مصفرة خشنة ، وأصبح الخلدان منل المبشرة . ما أظف أن يحكّ المرء بده بخده عندما يحتاج الى ذلك في أثناء العمل ... هذا الأمر يحدث كثيراً ، لا سيما إذا كان المرء يحلق ذقنه ثلاث مرات في الأسبوع ، فما بالك إن كان يحلقها مرة واحدة فقط ؟ !

(*) البتولا : او شجر القصبان : شجرة تثبت في البلاد الباردة ولها اصناف كثيرة . تتساقط اوراقها منذ بداية الخريف حتى بداية الربيع .

قرات مرة ... أو كأنني قرات ... في مكان ما ... أين ؟
نسيت ... قرات عن رجل إنكليزي وصل الى جزيرة غير مأهولة .
كان إنكليزيا ظريفاً ؛ عاش هناك منتظراً حتى وصل إلى مرحلة «الهوسة» ،
وعندما اقتربت باخرة من الجزيرة ، رآته ، فأرسلت زورقاً يحمل منقدين
لإنقاذه ، لكن الراهب الإنكليزي استقبلهم عندما رأهم بإطلاق النار من
مسدسه ، ظاناً أنهم جنس مائي خلبي مخادع يشبه السراب . لكنه
كان حليقاً فقد كان يحلق لحيته يومياً في الجزيرة غير المأهولة . أذكر
أن هذا الولد البار لإنكلترا قد أثار في «احتراماً هائلاً» نحوه . لذا فإنني ،
عندما عزمت على السفر الى هنا ، وضعت في حقبتي آلة حلاقة من
نوع « جيليت » ، ومعها « دزينة » شفرات ، إضافة الى موسى حلاقة
وفرشاة . وقررت حينها قراراً حازماً أن أحلق لحيتي مرة كل يومين ،
لأن الحياة هنا ليست أسوأ من الجزيرة غير المأهولة في شيء . لكن ،
حصل مرة في شهر نيسان النير ، أنني بسطت هذه الروائع الإنكليزية
كلها تحت أشعة الشمس الذهبية ، وأخذت أحلق ، ولم أكد أنتهي
من حلاقة خدي الأيمن ، حتى اقتحم إيفوريتش الملك بجزمته الطويلة
الممزقة ، يدب كحصان شمنوس ليخبرني أن ولادة تحدث بين الأشجار
فوق النهر في الغابة المحمية ... أذكر أنني مسحت الخد الأيسر بالمنشفة
وهرعت مسرعاً مع إيفوريتش .

ركضنا ثلاثتنا نحو النهر الفاضل العكر الجاري بين أفصان شجيرات
النصف صاف العارية ، أنا بعيني «الجاحظتين المتوحشتين» ، والمقابلة ومعها
ملاقط السحب ، والفاقة شاش وزجاجة يود ، وخلفنا إيفوريتش الذي
كلن ينحني إلى الأرض كلما مسى خمس خطوات لينزع فردة جزمته
الستوية لاعتنا نعلها الذي انقلع . كلن الهواء يأتي للقائنا مواءجها ، عذبا
ومتوحشاً ، إنه هواء روسيا في الربيع . سقطت بكلة القابلة ببلاجيا
إيفانوفنا عن رأسها فأنحلت عقدة شعرها ، فانسدل على كتفها .

قلت لإيفوريتش ونحن ماشيان :

— أنت تبذر نقودك كلها على الخمر . هذه حقارة . حارس مشفى
ويمشي كالصعلوك المتشرد .

فرد إيفانوفيتش بصجر ولؤم :

— أية نقود هذه لا عشرون روبلا في النهر لقاء تعب مضن وعذاب
سديد... آخ يا ملعونة ! — ضرب رجله في الأرض مثل حصان مفتاح —
النقود لا علاقة لها بالجزمة . أما شرب الخمر فمن أين المال يا حشرة... !

قلت بصوت خافت وقد انقطع نفسي :

— الشراب هو أهم شيء عندك، ولذلك تمشي وثيابك الرثة كالصعلوك.

وعندما اقتربنا من الجسر المتعفن تناهى إلى سمعنا عويل خفيف
حزين طار من فوق فيضان النهر الجليح ثم انطلقا .

ركضنا ، وعندما دنونا رأينا امرأة شعناء تتلوى من الألم ، سقط
ساقها عن رأسها فتهدل شعرها على جبينها المتعرق . كانت تحرك عينيها
هنا وهناك بعذاب شديد ، وتمزق معطفها بأظفارها .

لطح الدم القاني أول العشاب الربيع الخضراء التي برزت شاحبة
متفرقة على الأرض اللزجة المشبعة بالماء .

قالت بيلاجيا إيفا فوفنا مسرعة :

— لم تصل ، لم تستطع الوصول ...

ثم شرعت تفك لفاقة الشاش وهي حاصرة الرأس تشبه الساحرات
المشعوذات . . . وهنا ، ونحن نسمع هدير الماء المرح الذي يندفع عبر
دعامات الجسر الخشبية ، استقبلنا أنا وبيلاجيا إيفانوفنا الوليد الذكر ،
استقبلنا روحاً حبة ، وانقلنا الأم . وقامت ، فيما بعد ، ممرضتان

مذكرات طبيب مـ٩

نقل الوالدة على الجمالة إلى المستشفى ، وقد ساعدهما في ذلك إيفوريتش
الذي غدا حافي الرجل اليسرى بعد أن تحررت في نهاية الأمر من النعل
المقيت البالي .

سألت الأم ، بعد أن تمددت في فراشها ساكنة شاحبة مغطاة
بالملاءات ، ووضع الوليد في مهده إلى جانبها ، وعادت الأمور إلى طبيعتها :

— ما هذا أيتها الأم ؟ ألم تجدي مكاناً لولادتك أفضل من الجسر ؟
لماذا لم تستخدمي الخيول في المجيء إلينا ؟

أجابت :

— لم يعطني حمي خيلاً . فال لي : إنها خمسة فراسخ لا غير
وستصلين ، إنك امرأة قوية ، ومنتعة بالعافية ، ولا توجد ضرورة
لإتعاب الخيل .

فقلت لها غاضباً :

— حموك غبي ، بل خنزير .

وعلمت ببلاجيا إيفانوفنا :

— آه ، إلى أين وصل هذا الشعب الجاهل . ثم ابتسمت انتسامة
ساخرة .

التقطت نظرتها التي كانت موجهة إلى خدي اليسر ، فخرجت
فوراً ، وذهبت إلى غرفة التواليد ، وهناك نظرت في المرأة ، فعكست
المرأة ما عكسه عادة : خلقة عوجاء من النوع المنتكس بوضوح ، وزرقة
تحت العين اليمنى ... وهنا لم تذب المرأة في شيء ، فقد كان خدي
الأيمن يتراقص لامعاً ، أما اليسر فقد استطلت عليه أشواك كثة شقر

مائلة إلى الحمرة ، ولعبت الدقن دور المنصف بين الخدين ، فخطر في بالي كتاب مجلد بجلدة صفراء يحمل عنوان « ساخالين »(*) فيه صور لرجال مختلفين . ونخيلت : « جريمة قتل ، عنف ، بلطة مدماء ، عثر سنوات ١٠٠٠ . بالحياي الرائعة في هذه الجزيرة المهجورة ، لابد من الذهاب لإتمام الحلاقة » .

سمعت واثقا أنفاس نسيم نيسان الآتي من الأراضي السود ، نقيب الغربان المنبعت من رؤوس الفصان أشجار البتولا . أنغمضت عيني قليلا بسبب أشعة الشمس وسرت عبر الفناء كي أتم حلاقة الحيتي ، كان هذا في الثالثة عصرا ، ولم استطع إتمام الحلاقة إلا في التاسعة مساء .

لا أذكر بتلنا أن مثل هذه الأحداث غير المتوقعة قد حدثت في مورنيسك منفردة ، فالمصائب هنا لآتية إلا مجتمعة . . . لذا فلم أكد أبصر فوس الباب متجها نحو بيبي حتى ظهر لي في الباب الرئيسي وجه فرس تجر عربية ملطخة بالأوساخ ، تهتز بقوة وتقودها امرأة .

صرخت المرأة بصوت دقيق :

— ساعدوني .

وتناهى الى سمعي انين الولد الملفوف بكومة من الخرق البالية . كان قد أصيب بكسر في رجله بالطبع . . . لذا فقد أمضيت مع مساعدي ساعتين كاملتين ونحن نجبر الرجل المكسورة بالجبس ، وهو يعول عويلا متواصلا لم ينقطع خلال ساعتين . . . وبعد ذلك ، كان لابد من تنلول وجبة الغداء ، من تم تكاسلت عن إتمام الحلاقة ، ورغبت بقراءة شيء ما . ثم بدأ الظلام يمد جناحية ، وأرجىء أمر الحلاقة طويلا الى أن أتممتها مناخرا بغضب واكتئاب . . . وهكذا بقيت ذكرى الولادة الربيعية فوق

(*) ساخالين : جزيرة نائية تقع بالقرب من اليابان بنفى إليها الخارجون عن القانون .

الجسر في ذاكرني الى الابد مثلما بقيت الخطوط الصدئة على ماكينة
الجيليت المنسية في ماء الصابون .

وعلى نلّ حال ... فالخلافه مرتين في الأسبوع لا مسوغ لها
بتاتا ... فقد كانت العاصفة الثلجية تهبّ أحيانا ، فيغمرنا الثلج
كلياً ، ويحاصرنا فتبقى يومين في مشفى موريفسك دون أن نستطيع
إرسال الحملات ليحضر الجرائد التي تباع على بعد تسعة فراسخ . وكنت
القضي اللبالي الطوال أفيس ، وأفيس غرفة المكتب متشوقا بشدة لقراءة
الجريدة شوقاً يشبه شوق الأطفال لقراءة (قيثاف) كوبر (*) . لكن ،
مع ذلك فإن العادات الانكليزية لم تنته تماماً في جزيرة موريفسك غير
الماهولة ، لذا كنت اخرج أحيانا العوبتي الجميلة من غلافها الأسود ،
وأحلق لحبتي دون حماس ، فأغدو ناعماً نظيفاً كذاك الانكليزي الأبّي ،

لكن ، للأسف لم يكن ثمة من يمكن أن يستمتع بالنظر إليّ .

اسمحوا لي ... فقد تذكرت حادثة أخرى :

ما إن أخرجت مرة آلة الحلاقة ، وأحضرت أكسينيا كوز الماء المغلي
المثلج حتى قرع الباب بقوة ، وأرسل من يطلبني ... انطلقت أنا وبيلاجيا
إيفانوفنا نحو مكان ذلك الخيف ، ملتحفين بفراء الخراف . ومضينا في
طريقنا . لقد كنا مع الخيول والحوذيّ نشبه نبحاً أسود يعبر محيطاً
مسعوراً من الثلج الأبيض .

كانت العاصفة تصفر من حولنا مثل ساحره مسعوذة ، وتعوي ،
وتنفث ، وتقهقه . اختفت الأنبياء من حولنا تماماً . وشعرت ببرد

(*) جيمس فينيمور كوبر : James Fenimore Cooper ، اديب امريكي
(١٧٨٩ - ١٨٥١) اشتهر بسلسلة رواياته التي تتحدث عن عالم البحار ، ومنها
روايه (القيثاف) .

— كنت قد عرفته سابقاً — في بطنى ، في الضفيرة النمسية بالتحديد ، وراودتني فكرة اننا سنخرج عن الطريق في هذه العتمة الشيطانية المراوغة ، وسنضيع جميعاً في هذه الليلة : انا وبيلاجيا إيفانوفنا والخيول والحوذى . وخطرت في ذهني وقتها فكرة غبية ، كما اذكر ، وهي انني ساقوم — عندما يغمرنا الثلج الى منتصفنا ونبدأ بالتجمد — بحفن نفسي والممرضة والحوذى باللورفين ... لماذا ؟ كي لا نتعذب ...

اجابني صوت جاف وقوي . لا بأس ايها الطبيب ، ستموت من البرد ، ستموت مئة فائقة ، وديون مورفين ، ثم صفرت المشعوذة غو ، او ، اس س... واخذت تهزنا في زلاجاتنا وتهزنا ... نعم سبعلقون هناك في جريدة العاصمة في الصفحة الأخيرة من الجريدة عن كذا وكذا ... وانهم ماتوا اناء تادية الواجب ، الطبيب فلان — على حد سواء — مع بيلاجيا إيفانوفنا والحوذى وزوج الخيول ، رحمهم الله دفنوا في بحر الثلج . اللعنة ... ماذا يخطر في ذهنك عندما يقودك ما يسمى بالواجب المهني ، ويقودك ...

لكننا لم نموت ، ولم نضل الطريق ، بل وصلنا الى قرية غريشيخو حيث فمت بثاني تحويل للرجل في حياتي اناء التوليد . كانت الماخض زوجة معلم القرية .

وبينما كنا نعارك انا وبيلاجيا إيفانوفنا تحت ضوء المصباح كي نحول الاتجاه الجنين وكانت ايدينا غارقة في الدم حتى الاكواع ، والعرق بلل اجسادنا حتى العيون ، كان انين الزوج مسموعاً وهو يذرع الأرض جينة وذهاباً خلف الباب الخشبي في الجزء الخارجي من البيت .

وبين تشيخ الماخض ، وانين الاب الذي لا يهدأ ، كسرت — اقول لكم والسراً بيننا — يد الجنين .

تلقينا الولد ميتاً . آه سال العرق في ظهري . وخطر في ذهني فجأة
ان شخصاً مخيفاً وضخماً وأسود سيظهر ، ويقتحم البيت ، ويقول
بصوت من حجر :

— نعم ! يجب ان نسحب منه شهادة الدبلوم .

نظرت بأسى ، وقد همدت تعباً ، نحو الجسد الأصفر الميت ، ثم
نحو الأم التي كانت ممتعة ممددة بلا حراك ، غارقة في غيبوبة بفعل
الكوروفورم .

كانت العاصفة وراء النافذة على أشدها . وفتحنا الكوة لدقيقة
كي نتخلص من رائحة الكوروفورم الخائقة ، فتحول ما دخل من هواء
العاصفة الى سحابة من البخار . فيما بعد اغلقت الكوة ، واخذت
أحرق في يد الأم المتدلية العاجزة بين يدي القابلة .

آه ، لا أستطيع التعبير عن اليأس الذي تملكني وأنا اعود الى البيت
وحيداً بعد ان تركت بيلاجيا إيفانوفنا عند الأم كي تعتني بها .

كنت اهتز في المزجة وسط العاصفة التي اخذت تهدأ ، ووسط
الغابة التي ترنو إلى معاناة قانطة حزينة . شعرت بنفسي مهزوماً ،
يسحقني القدر القاسي ؛ القدر الذي رماني في هذه الغابة ، وارغمني على
الصراع وحيداً دون مؤازرة أو توجيه . ما أكثر الصعوبات الهائلة التي
يمكن ان تعترضني هنا ، إذ يمكن أن يحضروا إليّ حالات مخادعة
أو معقدة ، تكون في الأغلب حالات جراحية ، وعلي ان أقف أمامها
مواجهة ، بوجهي غير الحليق ، وان أنقلب عليها . وإذا لم تنقلب ، فتعذب
إذاً كما هي حالك الآن وانت تقطع الأراضي الوعرة تاركاً وراءك جثة طفل ،
وأماً مريضة . غداً ، فور هدوء العاصفة ستأبيني بها بيلاجيا إيفانوفنا
إلى المستشفى وسيواجهني سؤال كبير — هل أستطيع مساعدتها ؟ وكيف
يمكنني أن أفعل ذلك ؟

المساعدة : كيف يمكن فهم هذه الكلمة العظيمة ؟

في الحقيقة إنني أنصرف بطريقة اعتباطية ، ولا أعرف شيئاً . لكن حتى الآن كنت أوفق في عملي ، وانتجت يداي أشياء ناجحة ورائعة ، أما اليوم فلم يحالفني الحظ . آه إن قلبي منقبض من الوحدة ، من البرد ، من أن العالم خال من حولي .

من المحتمل أيضاً أنني ارتكبت جريمة — اليد المكسورة !

سأرحل إلى مكان ما — أركع أمام رجل شخص ما وأقول ...
هنا أنا وقد حدث كذا وكذا ... أنا طبيب وقد كسرت يد وليد .
اسحبوا مني شهادة الدبلوم فأنا لا أستحقها ، زملائي الاعزاء ؛ أرسلوني إلى ساحالين . تباً لانهيال الأعصاب .

تكاكات على نفسي كي أختبئ في قعر المزلجة حتى لا يأكلني البرد المخيف ، وشعرت بنفسي مثل كلب متشرد فرّ يستحق الشفقة .

سرنا مدة طويلة قبل أن يضيء المصباح المعلق عند مدخل المشفى .
باله من مصباح صغير فرح وعزيز دائماً ، كان يتلألأ قوياً تارة وباهتاً
تارة أخرى فيختفي ثم يسترعي الانتباه ... وعندما اتبت نفسه بقوة
أمام عيني ، وعندما كبر واقترب ، وعندما تحولت جدران المشفى من
اللون الأسود إلى الأبيض قلت في نفسي وأنا أعبّر المدخل :

« هراء أن تفكر باليد المكسورة . فهذا أمر لا أهمية له البتة . أنت
كسرت يد وليد ميت . يجب عدم التفكير باليد بل بالأمّ الحية » .

اتار فيّ المصباح ، ومنظر الطابق الثاني ، النشاط ، فقد أمسيت
على كل حال داخل البيت ، وأتممت طريقي صاعداً الدرج باتجاه غرفة
المكتب ، شامراً بدفء الموقد ، منتظراً بسوق النوم الذي سينسيني
عذاباتي كلها .

« نعم هذا ما حصل ، لكن ، إضافة إلى ذلك ، فثمة وحدة* مطلقة ومخيفة ، وحدة موحنة » .

كانت آلة الحلاقة على الطاولة ، وبجانبا كوز الماء المغلي الذي فدا بارداً ، رميت الآلة باحتقار في الصندوق . ما أشد حاجتي الى الحلاقة ... !

هذا عام كامل مرّ ، وبينما كان يمضي ببطيء كان يبدو طويلاً جداً ، متعدد الأشكال ، معقداً ومخيفاً ، لكنه الآن كما أراه : طار كالزوبعة .
وها انذا أنظر في المرأة لأرى آثاره التي تركها في وجهي : العينان أصبحتا أكثر جدية وصرامة ، وقلقتا ، والفم أكثر ثقة ورجولة ، وثمة تجميده فوق أرنبة الأنف ستبقى مدى الحياة مثلها في ذلك مثل ذكرياتي .

أراهم(*) في المرأة جميعاً . يركضون ركضاً محموماً . أهذروني فعندما كنت أرتجف خوفاً مما خطر في ذهني حول شهادة الدبلوم ، وحول المحاكمة التي سيجريها لي شخص خيالي ، خطر في ذهني أيضاً أن عدداً من القضاة المحلفين سيسألونني :

« أين فك العسكري ؟ أجب أيها المجرم المتخرج من الجامعة » .

يا لها من ذكرى ! القصة وما فيها أنه يوجد في هذا الكون مساعد طبيب هو ديميان لوكيتش، يقلع الأسنان بحلق يشبه حلق النجار الذي يقلع المسامير الصدئة من الألواح الخشبية العتيقة ، ومع ذلك فإن اللبابة واحترام النفس أملياً عليّ - منذ اللحظة الأولى القدومي إلى مشفى مورينسك - أن اتعلم قلع الأسنان دون الاعتماد على الآخرين ؛ فمن المحتمل أن يتغيب ديميان لوكيتش اللحظة ، أو يمرض . أما الممرضات فإنهن يستطعن كل شيء ما عدا شيئاً واحداً هو قلع الأسنان ، فهذا ليس من شأنهن .

(*) المقصود : الطاقم الطبي الذي يعمل معه .

حصل مرة ... اتذكر جيداً وجهه المورد الخدين ، والمعلدب في الوقت ذاته ، وهو يجلس أمامي على الكرسي ؛ كان جندياً عائداً مثل الآخرين من خط الجبهة المنهار بعد الثورة . أذكر تلمعاً ذلك الضرس الضخم الراسخ ذا الجوف الكبير ، المزروع بثبات في الفك . ويجزع شديد بدأت العمل ، كان حاجبائي مقطعين تعبيراً عن الحكمة ، تنحنحت ووضعت الكماشة على الضرس ، عندها خطرت في ذهني على نحو شديد الوضوح قصة تشيخوف التي يعرفها الجميع حول قلع سن الشماس ، فعرفت للمرة الأولى أن القصة ليست مضحكة أبداً . نشبت قرقرة شديدة في فم الجندي فاستغاث على نحو مقتضب :

— آي ، ويلتاه !

أخذت يداي بعد ذلك تعملان في فمه دون ممانعة ثم خرجت الكماشة من الأفم قابضة على شيء أبيض مضمخ بالدم . عند ذلك خفق قلبي بشدة لأن هذا الشيء كان في حجمه أكثر ضخامة من ضرس ، بل أضخم من أي ضرس عسكري أصيل ، في البداية لم أفهم شيئاً بتاتاً لكني فيما بعد أوشكت أن أبدا بالنشيج ، إذ ظهر في الكماشة — على وجه الحقيقة — ضرس ذو جذور قوية ، لكن هذا الضرس قد حمل معه قطعة كبيرة حمراء مائلة إلى البياض من عظم الفك .

« لقد كسرت فكه . . » فكرت بذلك وقد أخذت رجلاي تخطلاني .
أشكر القدر أنني وحيد هنا وليس حولي المساعد أو القابلات .

لقت خلسة ثمرة عملي الجسور في قطعة من الشاش وخبأتها في جيبتي .

كان الجندي يرتجف على كرسيه متمسكاً بيده الأولى برجل كرسي القابلة ، ومنشعباً بيده الأخرى برجل كرسيه ؛ ينظر إلي محملاً بعينين مشدوهتين تماماً . فناولته بارتباك شديد كأساً من محلول صودات البوتاسيوم وأمرته :

ـ ثمضمض !

كان هذا عملاً غيبياً ، فقد ملا فمه بالمحلول وعندما بصفه في الكوز
خرج من فمه ممزوجاً بدم عسكري أحمر تحول في الطريق بين فمه
والكوز إلى سائل كثيف ذي لون لا نظير له ؛ ومن ثم نقر الدم من فم
الجندي بصورة جعلتني اتجمد من الفزع .

لو انني طعنت هذا المسكين بسكين في حلقه لكان من المستبعد أن
ينزف دماً أكثر . أزحت كأس المحلول المطهر ، وأثبت الجندي بلغافات
الشاش وأخذت أسد الحفرة المفتوحة في فكه . كانت قطع الشاش تتحول
على الفور حمراء قانية ، وعندما كنت أخرجها من فمه كنت أرى بهلع
شديد أن هذه الحفرة يمكن أن تتسع بسهولة لجبة خوخ من
الحجم الكبير .

« لقد خربت فم الجندي » فكرت بذلك بقنوط وأنا أسحب قطع
الشاش الطويلة من الوعاء الزجاجي . في النهاية خفت حدة النزيف ،
فمسحت فم الجندي باليود .

ـ قلت لربوني متاثلاً :

ـ عليك ألا تأكل شيئاً لمدة ثلاث ساعات .

فأجاب الجندي وهو يحملق مبهوتاً في الكوز الذي ملئ من دمه :

ـ أشكركم شكراً جزيلاً .

فقلت بصوت رؤوف :

ـ اسمع يا صديقي . اسمع . . . تعال إلى غداً أو بعد غد كي أراك
... أظن . . . كما ترى أنه لا بد من فحصك . . . فألى جانب ضرسك
المقلوع ، ثمة ضرس بنير الشك . . . اتفقنا . . .

— اشكركم شكراً جزيلاً . اجاب الجندي عابساً ثم ابتعد يمسك
خده بيده . اما انا فقد خففت إلى غرفة الاستقبال وجلست هناك لبعض
الوقت أمسك رأسي بيدي وأهزه كأنني أتوقع من ألم الضرس مثل
الجندي .

أخرجت — خمس مرات تقريباً — من جيبي اللقافة القاسية المدماء
ثم عدت وأخفيها . لقد عشت أسبوعاً كاملاً حياة ترقب وفلق فامتل
جسمي ونحل .

« سيصاب الجندي بالغنغرينا ، أو يتسمم في الدم... آه ، اللعنة ،
لماذا حترت أنفي وكماشتي بهذا الأمر ... »

ارتسمت لوحات مجنونة في مخيلتي : ها هو ذا الجندي اخذ
يرتعش . في البداية كان يمضي ويتحدث عن كيرينسكي وعن الجبهة ،
فيما بعد أصبح أكثر صمتاً ، وغدا مشغولاً عن كيرينسكي . الجندي
متعدد يتوسد حشبة قطنية ويهدي . درجة حرارته أربعون . القرية
بأكملها جاءت لتعود الجندي . فيما بعد يتمدد الجندي بأنفه المدب على
الطاوله ، يبتهل للأيقونات .

تبدأ التقلبات في القرية :

— كيف جرى ذلك ؟

— « الدختور شلّو ضرسو » .

— هه فهمت هم ...

لاحقاً ، تزداد الأمور تضخيماً . وجراء ذلك يأتي الى شخص عنيف

— أنت قلمت ضرس الجندي ؟

— نعم ... أنا .

يشرّحون جثة الجندي ، محكمة . فضيحة . أنا سبب الوفاة .
وهكذا لم أعد طبيباً ، بل أصبحت انساناً مسؤولاً مرمياً عن ظهر السفينة
أو على الأصح كنت إنساناً .

لم يظهر الجندي ، اكتأبت ، جفت اللقافة وصدنت في درج طاولة
المكتب .

كان عليّ أن أسافر إلى مركز القضاء خلال أسبوع كي أقبض رواتب
العاملين في المشفى . وسافرت بعد خمسة أيام الى المركز . ذهبت الى
طبيب منشفى المدينة قبل كل شيء . كان امرأ ذا لحية صفراء من آثار
الدخان ، يعمل منذ خمس وعشرين سنة في المشفى . لقد حنكه الدهر .
جلست عنده مساء في غرفة المكتب . أخذت أشرب الشاي بالليمون
مكتئباً وانكس باظافري فطاء الطاولة ، لكنني لم استطع صبراً فشرعت
أحدثه موارباً ، وبطريقة ضبابية كاذبة : ... يحدث أحياناً أن ...
بالطبع إذا حاول أحدهم أن يقلع سنّاً ... وكسر الفك ... قد يحدث
أحياناً غنغرينا اليس كذلك ... اتعرفون قطعة من الـ ... لقد قرأت .

كان هو يسمع ، ويسمع محملاً نحوي بعينيه الباهتتي اللون اللتين
يعلوهما حاجبان كثان .. وفجأة قال ما يلي :

— هذا أنت إذاً من كسر له الهلّيتل ... ستصبح قانع أخراس
ممتازاً . دع الشاي وهيا بنا نشرب الفودكا قبل العشاء .

ومنذ تلك اللحظة ذهب معلمي (الجندي) من رأسي الى الأبد .

آه ، يا مرآة الدكري . مضى عام . كم هو مضحك أن أتذكر ذلك
الهلّيتل . أنا ، في الحقيقة لن أفلح في يوم من الأيام الأسنان كما يفعل
ديميان لوكيتنس . بالتأكيد فهو يقلع يومياً قرابة خمس قطع ، أما أنا

فمرة خلال اسبوعين ، وأقلع فيها سناً واحداً . لكنني على كل حال أقلع
الأسنان كما يتمنى الكثيرون . كما أنني لم أهد أسيراً للالهة ، وإذا ما
حدث وكسرتها فلا أخاف .

دعنا من الأسنان فهي لا شيء مقارنة مع ما شاهدته وفعلته خلال
هذا العام الذي لا مثيل له .

تسرب المساء الى الغرفة ، وإضاء المصباح ، وجلست أجمل النتائج
سابقاً في دخان السجائر المر . كان قلبي طافحاً بالإعزاز . لقد قمت
بعمليتي بتر فخذ . بتر الأصابع لا أعده ذا شأن أما الإجهادات فهي
سجلت عندي نماني عشرة مرة . أما عمليات الفتق وشق الرغامى فقد
قمت بها وانهت بنجاح ! وما أكثر الخزرجات العملاقة التي فقاتها !
وكم مرة شددت الأربطة على الأرجل المكسورة ، وكم مرة جبرتها برباطات
الجبس ! وكم مرة قومت الخلع الولادي . وكم مرة أدخلت الاتاييب في
الأعضاء الجوفاء ! والولادات ! تعالين أيتها الأمهات تعالين فمهما كانت
الولادات ، لن أجري عمليات فيصرية أبداً . هذا قول صدق . من
الممكن أن أرسل المالحض الى المدينة . أما اذا احتاج الأمر الى استخدام
الملاقط وإجراء التحويل فلا بأس ساجريها مهما كانت .

أذكر الامتحان النخرج الأخير في مادة الطب الشرعي وأذكر البروفيسور
عندما قال

— حدثني عن الجروح التي يحدثها طلق ناري عن قرب .

أخذت أحدث دون تكلف ، وتحدثت طويلاً . . . كانت تسبح في
مخيلتي أوراق الكتاب الجامعي السميكة . وفي النهاية تقدمت قواي .
فنظر البروفيسور إليّ بتقزز ثم قلل بصوت حاد :

— لا شيء مما قلته يمكن أن يحدث في حالات الجراح الناتجة عن
قرب . كم مرة نلت علامة « خمسة » ؟

فاجبته :

— خمس عشرة مرة .

فوضع مقابل كنيستي علامة ثلاثة ، وخرجت طريداً مفضوحاً ...

خرجت ، وسافرت بعدها سريعاً إلى موريفسك ، وها أنا هنا
لوحدي . الشيطان وحده يعلم ماذا يحدث في حالات الجراح الناتجة عن
طلق ناوي عن قرب . لكن ، هل أرتبكت يا ترى عندما تعدد هنا أمامي
عنى طاولة الجراحة رجل كان يُخْرِجُ من شفتيه زبد كالفقاعات ، أحمر
بسبب اختلاطه بالدم ؟ علماً أن صدره كله كان قد مزقه اللدب ، حتى
بدت الرئتان بوضوح وتعلق لحم صدره مزقاً . هل أرتبكت يا ترى ؟
وخلال نصف شهر خرج من مشفاي حياً معافى . أيام الجامعة لم أتشرف
مرة واحدة بإمساك ملاقط التوليد الجراحية بيدي ، أما هنا ، فصحيح
أنني استخدمها بارتجاف ، لكنني استخدمتها خلال دقيقة واحدة .
لا أخفي أنني استقبلت ولداً عجيباً فقد كان نطف رأسه منتفخاً أزرق
قرمزي ، أعور ، لقد ارتجفت خوفاً . وسمعت باضطراب كلمات بيلاجيا
إيفانوفنا المواسية :

— لا بأس يا دكتور ، يبدو أنك وضعت الملقط في عينه .

لقد ارتجفت يومين متواصلين ، لكن بعد ذلك عاد الرأس إلى
طبيعته .

ما أكثر الجروح التي خطتها ! وما أكثر التهابات البلور القبيحة
التي رايتها وفصح الضلوع على الرغم من ذلك ! ما أكثر الالتهابات

الرثوبة والاذنية ، والسرطانات ، والسفلس ، والفتوق (وعالجتها) ،
والباسور ، والأورام اللحمية ! !

فتحت سجل المرضى وأخذت أقلب الصفحات بإلهام . واحصيت .
خلال عام ، وحتى هذه اللحظة المسائية ، عالج (١٥٦١٣) مريضاً ،
وبلغ عدد المرضى الذين أقاموا في المستشفى (٢٠٠) مريض ، ومات
(٦) فقط .

أغلقت السجل وذهبت للنوم ؛ تمددت على السرير وأغمضت عيني
وأنا أفكر بأن تجربتي قد أصبحت هائلة . فما الذي يخيفني ؟ لا شيء .
لقد أخرجت حبة الحمص من أذن طفل ، وأجريت أعمالاً جراحية
كثيرة ... يدي الرجولية لم تعد ترتجف . لقد رأيت كثيراً من المخالعات
وتعلمت أن أفهم أساليبهن النسائية التي لا يفهمها أحد . لقد أصبحت
أميز فيما بينهن كما يميز شارلوك هولمز الوثائق السرية ... لحظة النوم
تقرب ... « أنا - ومدمت وأنا أنام - أنا لا أتصور أنه يمكن أن يأتوني
بحالة تستطيع أن تضعني في مأزق ... هناك في العاصمة سيقولون .
أو يحتمل أن يقولوا : هذه أعمال يقوم بها مساعدو الأطباء ... ليكن ...
لا بأس فحياتهم مريحة ... في العبادات والجامعات ... في غرف
التصوير السبعامي ... أما أنا فهنا ... كل يوم ... كل الفلاحين
لا يستطيعون العيس بدوني ... أه كيف كنت أرتجف سابقاً عندما
يفزع الباب ... وكيف كانت أفكارني تتضنج من الخوف ...
أما الآن ... » .

— متى حدث هذا ؟

— منذ أسبوع با أبانا (*) ، منذ أسبوع ، عزيزي ... لقد
انتفضت .

(*) نزل من النداء في اللغة الروسية يهدف إلى التحجب والاحترام معا .

وشرعت المرأة تبكي .

أطلّ الصباح الغائم التشريني ، وهو أول صباح في عامي الثاني .
فالبارحة مساء فقط اعتززت وافتخرت ... وأنا أنام ، واليوم أقف في
ردائي الأبيض حائرة أحملق .

كانت المرأة تحمل بين يديها طفلاً ابن عام واحد . تحمله وكأنه
حطبة .

لم يكن للطفل عين يسرى . وقد نثت من مكان العين ، من تحت
جفنيه الرقيقين المرسلين كرة الصفراء اللون بحجم تفاحة صغيرة .
كان الولد يبكي من الألم ويضرب بيديه وكانت الأم تشكو منتحبه . وهنا
حرت في أمري .

قلبت للطفل وفحصته من جميع الجوانب ، كان ديميان لوكيتش
والمرضة يقفان خلفي ساكتين إذ لم يريا مثل هذا من قبل .

« ماذا يمكن أن يكون هذا ؟ فتق دماغي ... هم ... مازال
حياً ... ورم لحمي ... هم ... بسيط ... ياله من ورم عجيب
ومرعب ! ... من أين نما ... أمن العين التي كانت ؟ ... من المحتمل
أن هذه العين لم تكن موجودة في يوم من الأيام ... على كل حال هي
الآن غير موجودة ... » .

قلت لها وقد تلبسني الإلهام :

— لا بد من سق هذا الذي ...

وهنا تصورت نفسي وأنا أشق الجفن كي أشكل فتحة كبيرة بين
جزيبه

« وماذا بعد ذلك ؟ من المحتمل أن يكون الورم ناتجاً عن الدماغ
فعلياً ... اللعنة ... الشيطان ... بسيط ... يشبه أن يكون
دماغياً ... » .

سألت الام وقد امتنع لونها .

— ماذا تشق ؟ أتشق العين ؟ لا أوافق .

واخذت مرتبة تلف ابنها باللقافة .

فاجبتها إجابة قطعية حازمة :

— لا توجد عين عنده من الأساس . انظري أين يمكن أن تكون هذه
العين ؟ عند أهلك يوجد ورم عجيب ..

فقالت الام خائفة :

— أعطه قطرة .

— ماذا تهزئين ؟ أية قطرة ؟ لا يوجد قطرة يمكن أن تساعديني في
مثل هذه الحالة .

— وماذا ؟ أيمكن أن يبقى بلا عين ؟

— لا يوجد عين لقد قلت لك .

فاجابت الام بأسى :

— لكنها كانت موجودة حتى يومه الثالث من بدء الورم .

« اللعنة » ...

- لا اعرف ، من الممكن أنها كانت موجودة ... تبا للشيطان ...
لكنها الآن غير موجودة ... اتعرفين . على كل حال ، الأفضل أن تأخذي
ابنتك إلى المدينة ، وبسرعة شديدة ، هناك سيجرون له عملية
جراحية ... اليس كذلك يا ديميان لو كيتش ؟

اجنب مساعدتي وهو بفكر بعمق . وكان واضحاً أنه لا يعرف ما يمكن
أن يفعله :

- نعم ، هم ... ورم عجيب .

سالت المرأة مدعورة :

- سيستقونها في المدينة ؟ لن أدعهم يفعلون .

وانتهى الأمر بأن اخذت المرأة ابنتها دون أن تسمع لأحد أن يلمس
عينه .

لقد اتعبت وأسي يومين متواصلين وأنا اهزّ كتفي ، وانقبت في المكتبة،
ممعنا النظر في الرسوم التي يظهر عليها أطفال خرجت مكان عيونهم
حوياصلات ... اللعنة

بعد مرور يومين نسيت الطفل تماماً .



مرّ أسبوع .

- لتدخل أناجوكوفا . صحت بصوت عال .

دخلت المرأة مريحة تحمل بين يديها طفلاً .

سالت سؤالي المعتاد :

— ما الأمر ؟

انقبض قلبي وكدت اختنق بينما شرعت تخبرني ، والسبب
ما ابتسمت ابتسامة ساخرة .

كانت تتحدث بنبرة صوت جعلتني ارتعش .

سالتني المرأة بسخرية واضحة :

— هل عرفته ؟

— قف ... قف ... آه نعم ... قف ... هذا هو الطفل نفسه .

— نعم هو نفسه . أتذكر يا سيدي الدكتور ، لقد قلت إنه لا توجد
عين ولا بد من الجراحة بفية ...

شدت لهذا . ونظرت المرأة نحوي نظرة احتقار ، يلعب في منيها
الضحك .

جلس الطفل بين يديها صامتاً ينظر الى الضوء بعينيه الشهلأوين .
لم يكن ثمة وجود لأي حويصل أصفر في العين .

قلت في نفسي وقد أخذ الوهن مني كل ما أخذ « هذا شيء من
السحر ... » .

فيما بعد ، وحين تماكنت نفسي ، رفعت جفن الطفل بحذر . فبكى
الطفل وحاول أن يدير رأسه ، لكنني مع ذلك رأيت ... ندأ صغيراً
جداً على غشاء العين . آ . آ . آ .

— فور أن خرجنا من عندك وقتذاك ... حتى انفقاً ..

فقلت لها مرتبكا :

— لا ضرورة للشرح أيتها المرآة . لا تعي عليّ . . . لقد فهمت كل شيء .

— كنت تقول لا يوجد عين هي اتّمت بسرعة إذا ؟ ثم ضحكت باستهزاء .

« ليأخذني الشيطان . . لقد فهمت . . . لقد ظهر في جفنه الأسفل خراج ضخّم ، وكبر بسرعة حتى زاحم العين ، وغطىّ عليه تماماً . . . فيما بعد ، عندما انفقأ الخراج ، وخرج القيح . . . عاد كل شيء إلى مكانه . . . » .



لا ، لن أقول بعد اليوم أبداً إنني أعرف كل شيء ، وإن شيئاً ما لن يدهنني . لن أفعل ذلك ، حتى وأنا أنام . يومرّ عام ، وسينقضي عام آخر سيكون غنياً بالمفاجآت إلى حدّ كبير ، مثله مثل الأول . . . هذا يعني أنني يجب أن اتعلم دون غرور .



الفهرس

| | |
|-----|-------------------|
| ٥ | مقدمة |
| ١٥ | الحجرة الحديدية |
| ٢٩ | العميد بالتحويل |
| ٤٥ | العاصفة الثلجية |
| ٦٥ | العملة المصرية |
| ٨٣ | الطقس النجمي |
| ١٠٧ | المنسقة ذات الديك |
| ١٢٧ | المنسقة المفقودة |

1994/12/15 20.0

تجاوز اسم ميخائيل بولغاكوف الحدود كلها عندما ترجمت رواية (المعلم ومرغريتا) الى الفرنسية، فالانكليزية فاليغية اللغات الحية .

لم تنشر في الاتحاد السوفيتي بالروسية الا في اواخر الثمانينات . ثم نشرت في الاتحاد السوفيتي أيضاً باللغة العربية ، ترجمة يوسف الحلاق التي كانت قد نشرتها وزارة الثقافة بدمشق .

من مفارقات ميخائيل بولغاكوف انه اكتشف موهبته الأدبية وهو تمارس مهنة الطب ، في أوكرانيا نهاية الحرب العالمية الأولى ومع أن ستالين أعجب بمسرحياته وبشهادته أكثر من مرة ، فقد منع نشر مؤلفات بولغاكوف في الاتحاد السوفيتي لسبب بسيط ومقنع اذ ذلك ، وهو أنها تقول مايجب أن يقوله كل كاتب حر . ولم يعد الى الوظيفة التي كانت مصدر عيشه الا بأمر من ستالين .

الكتاب الذي نشره الوزارة اليوم في ترجمة وتقديم جدين ، يقدم لقراءنا لوحة بعدة صور عن الوضع الاجتماعي البائس للإنسان الأوكراني - والروسي أيضاً - وبخاصة بعد حرب طاحنة كادت تدمر روسيا القيصرية . وهزيمة القيصر كانت من جملة العوامل التي جعلت شعوب الامبراطورية القيصرية تستسلم للثورة الشيوعية وتسهم في انجاحها .

القصص هذه ، وبالإضافة الى ما تقدم ، تدل على أن عبقرية بولغاكوف الأدبية ولدت أكاد أقول ، كاملة مع أوائل أعماله الأدبية .

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

في الاصدار المهرجاني مايعادل

٢٠٠ ل.س

سرايا داحل القطر

٢٠٠ ل.س